ســاق الـريــح

روايـة

ليــلى مهيـــدرة

ســـــاق الـــريـــح

رواية

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بـيروت - لبنان

الكتاب: ساق الريح
الموضوع: رواية
تأليف: ليلى مهيدرة

تصميم الغلاف: رشيد أمديون
لوحة الغلاف: الفنان محمد ساعود
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه
hussein.taha@live.com

جميع الحقوق محفوظة ©
الطبعة الأولى: 2014-2015

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف: 00961 3 359788
تلفاكس: 00961 7 241032
ص.ب: 11/3847 بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

ISBN 978-9953-594-29-3

يُمنع نقل أو نسخ أو اقتباس هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأية وسيلة طباعية أو إلكترونية
إلا بإذنٍ خطي من المؤلف والناشر.

إهـــــــداء

لكِ أيتها العابثة بأفكاري،

المتزعمة لاعتصام الشخصيات ببوابة ذاكرتي،

المطالبةِ بحقها في كلمات النقاد وتصفيق القراء وغير

القراء،

المتمردة علي حتى النهاية.

لكِ وحدكِ أعترف بهزيمتي.

(...) بسبق الإصرار والترصد أقرر فتح الرسالة دون أدنى إحساس بتأنيب الضمير، فالرسالة قادمة من مجهول وموجهة لامرأة غيري، ومع ذلك اقتحمت خلوة حروفها بشغفٍ كبير وبانتظار أقل ما يقال عنه أنه شوق متخفّ في زي حب استطلاع، فهي ليست الرسالة الأولى التي تقتحم بريدي، فقد سبقتها أخريات، وبما أنني القاطنة في الطابق الأرضي، فأنا أول من تتوصل بالرسائل البريدية، ونظراً لكون العمارة السكنية شبه فارغة إلا من رجل عجوز أجنبي، وأسرة حديثة العهد بالزواج والإقامة، وأن باقي الشقق لم تعمر قط، فالبريد صار يوزع بشكل آلي، أختار منه ما يخصني وأضع الباقي على عتبة السلم ليتسلمه الباقون، كنوع من التواصل غير المرئي وغير المباشر بين أناس جمعت بينهم وحدة المكان فقط لا غير.

في المرة الأولى بقيت الرسالة اليتيمة على السلم ليومين لأجدها في اليوم الثالث تحت عتبة بابي، ولا أدري أي يد تجرأت لتورطني بها؛ ربما لأني السيدة الوحيدة هنا، رغم أن الاسم كان مختلفاً تماماً.. أخذتها وقلبتها كثيراً، وربما تركتها على طاولتي لأيام وأنا

متوجسة من فضها، رغم أن رائحتها وشكلها كثيراً ما كانا يغرياني؛ فهي تختلف جذرياً عن الرسائل البيضاء المستطيلة والشبه آلية التي تنبئني بتأخري عن دفع فاتورة ما أو بحساب متوقع لرصيدي البنكي، لكن لا أدري: متى وكيف وجدتُني أحملها بين يديّ وأقرأ حروفها المتسلسلة ربما لأبحث فيها عن دليل للجهة الموجهة إليها أو القادمة منها، لكنني لم أجد إلا كلمات يائسة لشخص يبحث عن ليلاه، ويستجديها للعودة ويعترف لها بما كان يتردد دوماً في البوح به.

حياتي شبه الجافة جعلتني أنسى الرسالة أو ربما أتناساها، لكن وصول رسائل أخرى ورطني فيها، وكل واحدة تجعلني أجد مبرراً لفتحها عدا هذه الرابعة، فلا مبرر لي غير إدماني عليها وإحساسي بأني صرت عنصراً فعالاً في قصة لا أعرف أصحابها، وربما شاهدة إثبات على وقعة الحب هذه واغتراب الطرفين عن بعضهما البعض؛ فالحروف حتى الآن ما زالت حبراً على ورق دون موعد على أرض الواقع، أو عنوان يشهد على أصحابه، ومع ذلك منحتني فرصة أكبر للتخيل والتوقع، والأهم أنها حررتني من حياة رتيبة أعيشها، وجعلت

الأنثى بداخلي تنتفض وتعود لتتودد لمرآتها وتجدد علاقتها بأشياء تناستها منذ زمن، لأجدني في لحظة ما متشوقة لمقابلة المرأة التي تتغنى بها الرسائل، حتى وإن قضيت ساعات طويلة في نافذتي لعلها تكون قاطنة بالجوار.

أي نوع من الجنون هذا، الذي جعلني أقارن نفسي بطيف امرأة، ودعاني لكي أعبر واجهات المحلات، بحثا عن لمسات أنثوية افتقدتها كثيراً، الرسالة الرابعة كانت مختلفة نسبياً، إذ لاح فيها بصيص من مكان لا يعرفه غيرهما، جملة اعتراضية عن مكان جمعهما يوماً ما وشهد على علاقتهما، وأثبت من جديد اغترابي عنهما، وجهلي لمخططاتهما العاطفية، مما جعلني أحس بالامتعاض.. نوع من الخيانة للمكانة التي تبوأتها في هذه القصة.

أعدت قراءة الجملة الخاصة بالمكان، كانت مبهمة كما حقائق عدة، لكنها رسمت في داخلي بصيص أمل، بأن القصة حقيقية ولها وجود على أرض الواقع، وربما الرسائل القادمة تزيح الستار عن أمور أخرى، لكن لا أدري، لمَ هذه الجملة جعلتني أتحرر من لباسي المعتاد:

السروال الضيق، والحذاء الرياضي، وتدعوني لارتداء فساتين خاصمتُها لسنين، وأحذية عالية نسبياً، لأمتطي أقصر السبل إلى الحديقة المجاورة للمبنى، أتمشى قليلاً وأراقب نوعاً من الناس منذ زمن لم أصادفهم، أشخاص مثلنا لكنهم مبتسمون أكثر، ممارسون لإنسانيتهم حتى من خلال لعب كنت أراه ساذجاً رفقة أطفالهم، وعشاق مستلقين تحت ظلال الأشجار في حوار يختلس سكون المكان...

في البداية أحسست أن العيون ترقبني، لكنني قررت الانشغال عنها بها، ومن خلالها البحث عن شبح الرجل الخفي في رسائلي، فهي عادة تأتي دون طابع بريدي، مما يوحي أن صاحبها يضعها بنفسه في صندوق البريد.

كان في المكان أناس كثرٌ، ولا أحد منهم تنطبق عليه الصفات التي رسمتها حروفه وأكملتها مخيلتي، لكن مع ذلك، لم يكن هاجسي أن أراه أو أتعرف عليه وإن كان ذلك أمراً مستحيلاً تقريباً، فقد كانت هناك أمور أخرى اكتسبت أهميتها من وجودي هنا أرقبها: ابتسامات الصغار، وفرح الكبار، ومزاح المراهقين، عالم

جديد كنت أفتقده دون أن أحس، إذ لم أدر حتى متى انغمست في حياتي العملية، لدرجة أفقدتني إنسانيتي لفترة، عدت مساء للبيت أتأبط تعباً جميلاً وإحساساً رائعاً، يدعوني للبحث في مكتبتي عن رواية قديمة لنجيب محفوظ، كان لحروفها مذاق سحري علق بذاكرتي ومنحني فسحة جميلة من التخيّل، تصفحتها بحنين زائد لزمن جميل استعدته للتو..

كان بطل الرواية شاباً مكتمل الرجولة، فارساً لأحلام كل فتاة في سني يوم قرأتها لأول مرة، جعلني أسافر رفقة طيفه ممسكة بيديه مخترقة شوارع مدينتي، أشاركه تفاصيل حياته. تيمات الرواية كانت ترسم خيطا رفيعا بينها وبين الرسائل اليتيمة، كنت أحس أنها تكمل بعضها البعض، وأنها اخترقت جدار الزمان والمكان، لتؤسس عالماً واحداً أنا مركز الكون فيه، والآخر هو بطل الرواية مجسداً لحروف الرسالة.. عالم جميل يسكرني فيه حتى الثمالة، فأغمض عيني وأنا أحلم بتفاصيل أكبر وأصحو على نشاط غريب، لم يعتده العاملون معي، لكن همهماتهم ما كانت لتربكني، إذ ليس ثمة من سر معين أخفيه والتفاصيل

التي حدثت معي لا تهم أحداً غيري، ومن الصعب أن يتوقعوا أن سعادتي كلها من رسائل لم تكتب لي، وإنما من رجل لا أعرفه لامرأة أتمنى أن أقابلها يوماً ما فقط، لأبحث عن وجه الشبه بيني وبينها؛ فهذه الرسائل المجهولة المصدر، قد أذابت الجليد بداخلي وأشعلت شموع أمل انطفأت منذ زمن، ولم أكن أحس قط بانطفائها ولا حتى باحتياجي لها إلا يوم طرقت بابي هذه الحروف الوردية.

صرت أغادر عملي بلهفة مثيرة لملاقاة الشارع، تماماً كطفل ينتظر صفارة الخروج، لينطلق من ساعة الدرس نحو فضاء أرحب ولعب منتظر، سوى أن ليس لي من مُنتَظر إلا إحساساً جميلاً بداخلي بحب خفي للحياة...

رصيدي حتى الآن أربع رسائل وباقة انتظار وحلم متقد في تربع مكان تلك المرأة ولو في الحلم، حلم وُلد بداخلي ونماه إحساس جميل امتزج بشوق الانتظار وعتاب التأخير، للحظات كنت أنا هي.. ما دام هناك مقعد فارغ فلمَ لا أستمتع بالجلوس عليه، وأنا الواقفة خارج مدار الحب لسنين، ما الجرم في ذلك وأنا وحدي

فـي خلـوتي التـي اقتحمتهـا رسـائله عنـوة وأرغمتنـي علـى اقتفـاء خطواتهـا، هـم المـذنبون لا أنـا، ومـن حقـي علـيهم أن يتحملوا اختراقي لحكايتهم كما فعلوا هم بحياتي.

فمنـــذ فضـــي لأول رســـالة، وهـــدفي الوحيـــد أن أوجههمـا لبعضـهما الـبعض المرسـل والمرسـل إليـه، لكـن الآن انتفـى ذلـك الإحسـاس وصـار مجـرد رغبـة جامحـة فـي أن يسـتمر شـلال الرسـائل هـذا، علـه يمنحنـي القـدرة علـى تصـور نفسـي مكـان تلـك الأنثـى المرتسـمة فـي خيالـه والتـي كانـت كـل أوصـافها انطباعـات.. انطباعـات رجـل قابلهـا يومـاً مـا صـدفة، فجعلتـه عاشـقاً لاهثـاً وراء طيفهـا، جريئـاً لدرجـة أن يرسـل إليهـا رسـائل إلـى عنـوان خـاطئ، دون التحـري عـن مـدى صـحته أو إن كانـت تتوصـل هـي بكلماتـه الحارقـة.. أي امـرأة هـذه وكيـف هـي؟؟.. تسـاؤلات مـا فتئـت تشـغل بـالي، حتـى خلتنـي للحظـة مسـتعدة لتزويـر الوقـائع ولأكـون أنـا هـي ولـو فـي الحلـم، ولـمَ لا فـي الواقـع أيضـاً، فأنـا أحـق منهـا فـي أن أعـيش هـذه القصـة، لأنـي أنـا مـن اخترقَتْهـا كلماتـه، وأنـا مـن اسـتمتعت ببوحـه واعترافاته الأولى.

مـاذا لـو كنـت أنـا المقصـودة بتلـك الرسـائل، فلـيس هنـاك دليـل علـى تلـك المـرأة إلا بعـض التفاصـيل التـي قـد تعني أية امرأة؟

مـاذا لـو كنـت أنـا والرسـائل، منـذ البـدء، هـي موجهـة لـي وهـو الـذي تعمـد أن يتركهـا تحـت عتبـة بـابي، ومـاذا لـو كـان الاسـم مجـرد تخمـين ليـوقظ ثـورة المـرأة المحبـة للاستطلاع بداخلي؟

كيـف لكلمـات غامضـة علـى الـورق، أن تـوقظني مـن غيبـوبتي وأن تخرجنـي مـن شـرنقتي، عزلتـي التـي اخترتهـا عـن قناعـة وعـن سـبق إصـرار، كمـا فتحـي لهـذه الرسـائل، أتراهـا رسـائل مـن قـدري الـذي خلتـه لـزمن قـد تخلـى عنـي وأرغمنـي أن أغلـق كـل النوافـذ الحياتيـة كمـا أغلقـت القنـوات التلفزيونيـة، التـي صـارت تكـرر مشـاهدها كنـوع مـن التعـذيب والتعتـيم الإعلامـي، والتـي كانـت تعبيـراً صـادقاً وصـارخاً لغبائنـا، كلمـا حاولنـا البحـث عـن فهـم مـا يحـدث أو التصـديق بأنـه قـد يكـون هنـاك حـل لكـل هـذه الحـروب، التـي تختـرق حياتنـا عنـوة والتـي لـم تكـن سـوى آخـر مسـمار يطـرق فـي نعـش ضـمائرنا حتـى وديـان الـدماء، التـي تستعرضـها أمامنـا وأشـلاء الجثـث المترامية

على الأرصفة، والتي نجحت في أن تجعلنا نتعود عليها بشكل أو بآخر، والتي لم تستطع إلا أن تجعلني أقرر دون أن أدري أن أنعزل عن هذا العالم، فلا توقظني لا القنابل الموجهة ضد أطفاله ولا الصرخات ولا حتى أشلاء رصدت لمسلمي بلد لا أدري موقعه على الخريطة والذي ينفر فضولي لمعرفته.

لا أدري حتى لمَ خضت في هذا الحوار، الذي رغم أهميته لا أريده بأي شكل من الأشكال، أن يكون تأريخا لزمن عشته فأفقدني الإحساس به، فأقسى درجات الألم أن تفقد الإحساس به، وأن تجد نفسك بمعزل عن الآخر، على هامش عالم لا يمت لك بصلة، لا تعرفه ولا يعرفك أو بالأحرى لا يتعرف إليك، في نفس الوقت الذي لو تصرخ في الناس لتعلمهم بأن ما يعيشوه ويرسم على وجوههم أشكالاً معينة، مما قد يصطلح على تسميته بالفرح أو الحزن أو الامتعاض حتى، ليست عدا وسيلة مظللة لتصنع العيش ومحاولة إيحاء للآخر، بأنه لولاك لما اكتملت الصورة الاجتماعية رغم اقتناعك، أنك لا تملك من مكان إلا بقعة ترابية صغيرة بحجم

جسمك، تساعد أشلاءك على التحلل، ولتصبح نقشاً على صخرة تطؤها الأقدام يوماً ما دون حسرة.

كم هي غريبة هذه التناقضات بداخلي، أمورٌ جعلتني أدفن نفسي في قبر أكبر، أتعامل مع أناس محاولة ألا أرتبط بهم بأي شكل من الأشكال، وحتى يكون تواصلي بهم بقدر أبسط ما يمكن أن يقال عنه موت من نوع آخر، حتى ليخيَّلُ إليّ أني قد قضيت أياماً كاملة دون أن أنبس بكلمة واحدة، وشهوراً دون إحساس أو حتى ردة فعل.. عزلة مطلقة، انفصال، أو بتعبير دقيق فصل... تماماً، كما يفصل جهاز عن الشحن فتراه ميتا لا ينبس بصوت ولا يعترف بالحياة، حتى الحروف التي تؤنسني والخيط الرفيع الذي يربطني بعالم الأحياء، كانت مجرد كلمات متجمدة على كفن الورق، لا تكاد تبوح بأية مشاعر غير جليد العبارات، ولكأنها تأكيد على قناعتي التامة بأن الموت يحيطني من كل الجوانب.

الجمل لا تعني شيئاً، سوى عادة دفينة لتقديس الورق الأبيض والقلم، الذي يتحرش به كمحاولة فاشلة لإضرام نار الحروف كنوع من الربط ما بين عصر حجري

تحتك فيه الحجارة بالحجارة لتشعل ناراً، وعصر تحتك فيه الأقلام بالأوراق لتكتب الفشل في إشعال النيران أو حتى إطفائها، في زمن الكل صار فيه صاحب قلم ورأي، والكل صار كاتباً وشاعراً وإعلامياً، سخافة قدر تباع فيه الأقلام والكتب على الرصيف بأبخس الأثمان، والكل يخلق لنفسه وهماً بأنه قد يوجد الحلول بجرة قلم، حيث انتفى دور القلم الأحمر وحتى الخط الأحمر، وأصبحت العبارات تتسابق نحو المحظور لعلها تنال السبق.

لا أدري متى توقف الزمن بي، وبالتالي كيف صارت الصحف والمجلات والكتب متوقفة متشبثة برفوف مكتبتي، وكأنها قد كسبت سباق الكراسي، الذي كنا نلعبه ونحن صغار وترفض أن تغادر أماكنها إلا بثورة مني، والثورة - ربما- حانت بهذه الرسائل، التي كانت أقوى من كل الصور الشاذة على شاشة تلفازي، والعناوين المثيرة على الصحف ومجلات الرصيف بصورها المتعرية من كل شيء والمتحررة من التحرر ذاته، بضع أحرف بأسماء ربما مستعارة على ورق شفاف استطاعت ما لم يستطعه غيرها، وأجدني أستسلم لها،

وأبتغي منها بعض الدفء والنبض أيضاً، انبعاثاً من نوع آخر، وإلا كيف استطاع أن يخرج هذه المومياء من أسمالها ويوقفها أمام المرآة من جديد، ويرغمها بأن تراقص خيالاً منبعثاً من حروف لم تكن لها أصلاً، كلمات عن الحب في زمن أجمع فيه الكل أن لا مكان للحب فيه، ثنائية صارخة للتضاد، تضاد لا يمكن أن يشبهه غيري أنا..

قررت أن أصالحها اليوم، أن أقتسم فنجان قهوتي معها، لنتذكر زمنا كنا لا نفترق فيه، وضعت قهوتي فوق الطاولة وجلست قبالتها التقت عينانا على غير موعد، اكتشفت الحزن المخيف المختبئ خلف عينيها، تنقلت عيناي لتفترسه في نفس الوقت الذي كانت هي ترقبني وهي مستغربة لتغير ملامح وجهي كلية.. كنا نلبس دوماً نفس اللباس ونتعمد نفس تسريحة الشعر، كانت اختياراتنا نوعاً من الديمقراطية المفرطة، تشابه تام أو لا شيء، كنت حزينة لشكلها وكانت ممتعضة من شكلي.

- أحسك غريبة بلباسك هذا.

كلماتها فجرت بداخلي إحساساً كنت واثقة منه وثقة كنت أحسها باقتناع تام، حروفها وحدها تملك كل هذه القدرة على إقناعي برأيها وتجريدي من قناعاتي، وحدها تستطيع أن تفهم ما أريد فتستسيغه أو ترفضه.

- أتغارين؟

بمزاح أداعبها وأستفزها لتعبر عن كل ما في داخلها، ولعلي حاولت إضحاكها كي تتحرر من تلك الشخصية الحزينة، التي تلبسها منذ سنين.. انتابني شعور بالبكاء لكنني تمالكت نفسي، ودون أن أقصد كانت نظراتي تلتهم كل جزء منها، اكتشفت إلى أية درجة كنت قاسية عليها وعلى نفسي، حاولت أن أكسر جدار الصمت، لعلها تكون بداية جديدة كما خططت للأمر؛ فقلت:

- ستبرد القهوة ...

لكنها ظلت جامدة متوجسة وظللت أرقبها، فيما عينيها ظلت مركزة على دموعي المتجمدة.. ازداد إحساسي بتأنيب الضمير، دمعت عينانا في شبه اعتراف من أننا قد تعبنا من لعبة القط والفأر، تلاشى الحزن

بـبطء لتتحـول نظراتهـا إلـى إشـفاق علـى حـالي وحالهـا: "توحشتك".

هـذه الكلمـة وحـدها المختبئـة بـداخلي منـذ سـنين والمغرقـة حتـى النخـاع فـي تاريخنـا المشـترك، وحـدها تسـتطيع إذابـة الجليـد بيننـا، لمحـت ابتسـامة خجلـة تطـل مـن شـفتيها تحـررت مـن جمودهـا، امتـدت يـدانا للقهـوة ارتشـفناها وأعـدنا لعبـة مارسـناها مـراراً: أن تتحـرك أيدينا في وقت واحد وتحاول ملامسة الأشياء.

حاولـت، كمـا كنـت أفعـل وأنـا صـغيرة، أن تكـون حركتـي أسـرع مـن حركتهـا، لكننـي فشـلت كالعـادة، ومـع كـل فشـل كانـت قهقهاتنـا تعلـو المكـان، تجاهلنـا القهـوة وبـدأنا نقلـب فـي عـدة التجميـل.. لـي زمـن لـم أضـع أحمـر شـفاه، اختـرت لونـاً أحمـر قاتمـاً، فسـخرت منـي وامتعضـت، اللون الزهري أعجبها، ابتسمت له، وابتسمت لها..

فتحـت دولابـي، أريتهـا فسـتاناً مـا رأتـه قـبلاً إلا عنـدما اقتنيته.

- تذكرينه؟

كـان فسـتاناً حريريـاً لونـه زهـري، رسـمت عليـه ورود بـاردة بلـون سـماء صـافية، نظراتهـا كانـت تـدفعني

لارتدائـــه، فَـــردتُ شـــعري إلـــى الخلـــف متعمـــدة تقليـــد عارضـات الأزيـاء.. كـان طـويلاً تعثـرت قـدمي بـه، وقعـت، علـت قهقهـاتي فـي الغرفـة، اقتربـت منهـا مـن جديـد وبكـل الصمت الذي تعشقه وهمست لها:

- تصالحنا؟

حركـــت رأســـها بالموافقـــة ولأول مـــرة أدرك أن حركتنـــا كانت مختلفة ...

أحبك مرآتي...

ماذا لو كنت أنا المرأة المقصودة فليس هناك من دليل على أنها لست أنا، قلبت الرسائل كثيراً، فلا دلائل إثبات ولا دلائل نفي، هذه الفكرة صالحتني مع الأنثى بداخلي وغفرت لذاك الغريب اقتحامه لي ولبريدي مما جعلني أجدد انتظاري للرسائل القادمة، رسائل تأخرت كثيراً لتزيد من شوقي لها حتى وإن تغير الإحساس ليصبح لوماً وعتاباً.

لذا قررت أن أكتب لذاك الغريب القريب، أن أجدد عناقي والورق الوردي لأتمم رسم دائرة الحب، ليس مهما ما سأكتبه فقط كان يكفي أن آخذ قلماً وورقة لأبدأ، فبداخل كل امرأة منا رجل متهم لغيابه أو لخيانته، أو لتقصيره، فالحكايات المجتمعية جمعت لكل واحدة منا رصيداً متكاملاً عن هذا الكائن الآخر، ويكفي أن يحتك القلم بالبياض ليثير كل تلك الحكايات ويدمجها ليرصد لنا كائنا ظالماً.

ليس مهما كيف تراني أيها المتورط في حكايتي؛ فأنا أحب رسمك حبيباً خائناً، احتضنته يدي بدفء العشاق وباعها من أجل وهم حب في مكان ما، لا تهمني رسائلك التي صارت تطاردني من جديد، وهذا الحب الذي تبكيه ندما، لأنك لم تبح به يومها، فهو كان بداخلي منذ البدء حقيقة ثابتة.

الرسالة الأولى

ما عاد مهماً أن تعود...

سأكتب لك كل يوم رسالة، أنسج تواريخها حسب ذاكرتي وأنت أعلم الناس أن ذاكرتي ضعيفة جداً.. ممكن. إلا فيما يخصك، أتذكر أصغر التفاصيل، لن أكلمك عن أول فنجان قهوة ارتشفناه معاً، كان أسوأ ما في المكان فنجان القهوة ذاك شاطئ جميل وصحبة تناسيناها ومقهى ووجبة غداء لا بأس بها وأنا وأنت، متقابلين فرحين من تخطي قدرنا وقف النادل وقال:

- من يريد قهوة؟

لمعت عينانا كأنما هدية القدر، توقيع اتفاق جديد، كان مذاقها سيئاً نوعاً ما، لكن تلاقينا كان يحلي كل شيء، ابتسمنا وارتشفناها وضحكنا حتى الثمالة، لا أحد يرفض هدية القدر.. تقاسمنا أشياء عدة، حتى حبة العنب.. ذاك كان هناك في غابة ليست كالغابات، أكاد

أراك الآن تحصي كل ما اقتسمناه، الموزة.. سبقتك أين كان الأمر.. حاول التذكر..

أجل في السوق العتيقة بمدينتك، كانت ليلة حزينة دمعت عينانا معاً فيها، قرب الرحيل.. تذكرته الآن، مرارته ما زالت راسخة بذاكرتي وغصة ما زالت عالقة بقلبي إلى الآن.. أتساءل: متى أدركت أن ما عشناه كان حباً؟.. أتذكُرُ لعبة القطار.. يوم كنت أتنقل من محطة لأخرى وكانت النافذة لا تحيد عنك، كنت أنت من أرحل منه إليه.. أهرب من كل من يقترب مني.. أتذكر؟

واليوم أراك أنت من يقرر ركوب القطار وأُطل أنا من النافذة أرقبك من بعيد، تماماً كحكاية بائعة الكبريت، أشعل ذكرياتي معك تباعاً، وشوقي ولحظاتنا، لتنطفئ وتبقى أنت محتضنا لطيف يشبهني، ممارساً طقوساً مارسناها قبلاً، مكرراً للحياة ذاتها التي عشناها معاً وواعداً إياه.. أتراك وعدت؟ وأقسمت؟.. ما زلت منبهرة بكل ما حصل.

وكيف نسجت خيوطك حولي على مهل ومحوت كل ما كان قبلك ورسمت حياتي من جديد، مولوداً لا يعرف

سواك، لا ولن يدرك سوى أبعادك وما رسمته له، هل كنت أذكى مما تصورت، أم أنني كنت أغبى؟.. لا شك أن ما حصل هو قدر.. ألم تسمِّه كذلك، فحتى في قمة غضبي منك أعود لتعريفاتك وتصنيفاتك..

ابتساماتنا قدر

تصالحنا، خصامنا قدر

لقاؤنا، بعدنا قدر

حتى وأنت تكلمني لإلغاء الموعد الأخير كان قدراً..

غريب أمرك وأنت تلبس القدر وتصبح أنت من يقرر..

الرسالة الثانية

هـــواجـــس

سيدي..

هـل أبـوح لـك بهواجسـي يومهـا حتـى وأنـا أبكـي قـرارك الجائر، كنت أبحث لك عـن مبـرر.. ربمـا لا يسـتطيع الإحسـاس بي، والأسوأ أن تكون قـد أدركـت مشـاعري ومـع ذلـك تقـرر ألا تأتي أو لا آتي أنا إليك، كيف استطعت أن تخلق مني هذا الكـم الهائل من التناقض، غضب ورضاً.

اليوم قـررت أن أنهـي كـل شـيء، وأن أفقـد تلـك الـذاكرة التي تحملك وتلدك في تفاصيلي اليومية، بمخـاض لا مخـاض فيه إلا ألمي بتذكرك، تغازلني ابتساماتي وكأنك أنـت المتربـع فـوق شـفتي بكـل شـهوانيتك، ترسـم عليهـا بأصـابعك كـل التقمصـات: حزنـاً، فرحـاً، اشـمئزازاً، وامتعاضـاً أحيانـاً، حتـى رحيلي عنك كان بوحي منك، أي جبروت هذا...

وقفت بمكتبة الرصيف في المدينة الحارة، حيث الشـمس تشرق ببريق خاص يكاد يشبهك، كنت أنت المطل من عينـي،

المتصفح لكم الكتب المعروضة، أدرك أنني مهما غصت في قراءة الكتاب، فهو لك في الأخير، لذا كان اختيارك لا اختياري. رشيد نيني كاتب المقالة المشهور ويوميات مهاجر سري.. توليفة ستعجبك، تشبهك في كل شيء الوجه المرسوم على الغلاف وجه مقسم لنصفين، جانب أبيض كطيبتك التي أسرتني، وجانب أسود لا تكاد تتعرف عليه تماماً، وكأنه يتستر على ذلك الجانب الخفي فيك والذي لم أكتشفه إلا فيما بعد..

الكتاب يروي قصة مهاجر سري بتنقلات غير واضحة المعالم (تماماً كما أنت).. أتدري حتى وأنا أجزم أنني أكتب صك التحرر منك.. رسائل لن تصل إليك أجدني أهاب الحروف التي قد تغضبك، ومع ذلك أحاول وضع بعضها كنوع من التقمص بقناع القوة أمامك..

أتدري.. الحروب في بلدي وكما توارثنا حكاويها كانت قمة الرجولة والنخوة، وربما عن كرامات لكن يكفي أن تتملك جواراً فضفاضاً لتدرك حوارات خفية عن ضعف مستتر وخذلان، وحتى عن تراجع يجعلني أوقن أن التحرر هو قدر مقدر، تماماً كحكايتي معك، والتحرر منك ما هو إلا قدر ربما أسعى إليه بأقدام مرتجفة لعلي لا أصِل.

الرسالة الثالثة

رحـيل الأسطـورة

هـل فكـرت فـي أن تمحـو تـواريخ معينـة، وهـل تـنجح؟.. أم أنـك مثلـي تكتشـف أن مـا حصـل هـو أخطبـوط.. مـادة لزجـة متولـدة بمجـرد لمسـها للهـواء.. تتوالـد لتغطيـك ولتسـيطر علـى حواسـك ولتصـبح نقطـة البدء..

خطـوت يومهـا فـي الشـارع الـذي يفصـلني عـن بيـت والـدتي وأنـا أفكـر مـا السـبيل لأمحـوك مـن ذاكرتـي، وكيـف أخبـر كـل مـن حـولي أنـك قـررت الرحيـل الصـامت، وأن الأسطورة قد انتهت؟

اليـوم قـررت أن أكتبـك بكـل الخطـوط والألـوان، مسـتعدة أن أتحـرر مـن كـل علامـات التـرقيم لأجلـك وحتـى تكـون صـفحاتي بـلا عقبـات.. كـم أنـت قـوي وكلماتـك تنطلـق لتضـع قـوانين عسـكرية لعلاقتنـا، علامـات مـرور فـي شـوارع الحـب، ترسـانات وتحديـد إقامـة.. علـى

مساحتي البيضاء، أنا حرة؛ فكن حرباً.. وكُن عقيد جيش.. وكُن شرطي المرور.. عسكر الجامعة.. حدود وهمية لأوطاني، لكن هنا في مخبئي السري منك أنا حرة. هنا أراك بكل الألوان، أحمر كدمي المنسكب فوق كل ورود الحب، وأسود كقهوتنا المفضلة.. ماركة مسجلة.. أتدري وفي قمة غضبي، وكلما أحسست بحاجتي إليك أقرر أن أشرب فنجان قهوتي على طريقة اعتدناها معا.. بكل الهدوء آخذ فنجاني، وأضع ملعقة قهوة، ثم ملعقة سكر، وقطرة ماء، فأحركها بنشوة المتحرر مما غرسته بداخلي من قسوتك، وأتخيلك وأنت تهاتفني:

- آلو، السلام عليكم.
- وعليكم السلام.
- ما بك؟ كأنما تفاجأت .
- لا، فقط كنت منشغلة بتحضير القهوة.
- سأتأخر قليلاً.
- لا عليك تأخر كما تشاء.

لا أدري كيف كنت أتصرف بتلك القوة، وأنا البعيدة عنك، فحالتي معك دوما كالواقف على الطرف الآخر من

النهـر حيـث تصـبح الظنـون المصـدر الوحيـد والرسـمي لأخبـارك وحيـث لا حـدود للخيـال، حتـى العُـرف والـدين والحيـاء لا تحـدهم حـدودا، وأنـا لا أراك، لا تغضـب مـن صـراحتي وحتـى مـن تفـاهتي لكـن دمعـي المنسـكب بلونـه الشـفاف علـى كـل أطـراف جسـدي كأنمـا يغسـلني مـن ظنـوني، وصـوت كـاظم بأغنيتـه الحزينـة مـا عـادا قـادرين علـى إعـادتي لبـر الأمـان. سـنكون صـديقين بعـدما دمـر العشـق والشـوق كـل قلاعـي وصـرت عاريـة مـن دونـك، وحتـى لا أتهـم بالهمجيـة وأنـا بـلا سـقف ولا بيـت، الصـداقة هـي وحـدها مـن تقبلنـي فـي الشـارع، أتمشـى حـول هـوامش جسـدي، مفتخـرة بـأنني خرجـت سـالمة ظاهريـاً مـن قصـة حـب رسـمت كـدماتها علـى ذاكرتينـا وربمـا علـى ذاكرتي فقط..

الرسالة الرابعــة

مــا بعــد الرحــيل

كـم جميـل أنـك تركتنـي يومهـا، أقولهـا بصـدق، فـلا تصـدق مـن يقـول أن الحـب لا يعـرف نقطـة نهايـة، بـل الحـب هـو مـا يسـتطيع أصـحابه أن يعيـدوا رسـم مـواقعهم خارجـه، فأجمـل قصـص الحـب هـي التـي تمـنح للمحبـين مسـافات أكبـر لإعـادة ترتيـب الأوراق، للحلـم، للتخيـل، وأنـت منحتنـي أكبـر مسـاحة ممكنـة بحجـم مـا عشـناه معـاً ومـا لـم نعشـه، فـاتركني، هنـا، علـى حـدود جسـدي أعيـد رسم التواريخ والأحداث بطريقتي.

مـا قلتـه ومـا لـم تقلـه، أشـياؤنا الصـغيرة التـي اقتسـمناها، قبلاتنـا التـي حلمـت بهـا خلسـة، فـدامت فـي أكثـر ممـا قـد تدوِّمـه القـبلات عـادة، جماليـة أخـاذة، حتـى دموعـك سـيدي التـي تخيلتـك تـذرفها فـي لحظـات ضـعفك بـين يـديّ حتـى تتـيح لـي فرصـة احتضـانك لتضـع رأسـك علـى صـدري وتجـس نبضـاً كـان يـرقص طربـاً لمقـدمك

ووجـــودك، والآن يبكـــي لجحـــودك وبعـــدك وهجـــرك، لا تعتقـد أننـي غاضـبة، أبـداً، لأنـي أنـا الأصـل وأنـا مـن علمـك كيـف تلامـس امـرأة وكيـف تراقصـها. وأنـا مـن رسـمتك رجـلاً تقليـدياً وأنـا أستشـيرك فـي كـل التفاصـيل حتـى لا ألـبس إلا علـى هـواك. وأنـا مـن علمتـك مـا تحـب الأنثـى وكيـف تتملكهـا لـو فقـط تسـللت وراءهـا لتحضـنها، ومـن يـدي كنـت تشـتهي كـل وجباتـك وتأكلهـا بشـراهة مـن يأكـل الطاهيـة لا الأطبـاق، لـذا لسـت غاضـبة، فقـط منبهـرة كيـف تراجعـت عـن مبـادئ كنـت أراهـا فيـك رمـز رجولتـك وشـموخك واعتـزازك بنفسـك. أنـا مـن علمـك كيـف تـداعب أنثـى وكيـف تمـارس طقوسـك الرجوليـة علـى أعتابهـا. أنـا مرجعـك الأنثـوي، فمنـه تعلمـت قـانون التـردد وإعـلان الانسـحابات المتكـررة وكـل كلمـات الشـوق والعشـق والرضـا، فـلا تغتـر إن فرحـت امـرأة بترانيمـك وتـذكَّر أنـي معلمتـك، فمـن علمنـي حرفـاً صـرت لـه عبـداً. أرأيـت كـم جميلـة هـي لعبـة الحـب، وكـم هـو رائـع تغييـر المواقـع، وأن الأنثـى التـي منحتـك ربوبيـة الهـوى وهـي أمَتُـك تصـير بعـد رحيلـك عنهـا سـيدتك المتحكمـة فـي كـل قصص الحب التي ستعرفها بعدها.

* * *

أكملت كتابة أربع رسائل، وما كانت لتكفيني؛ فما بداخلي لا تسعه الحروف ولا الأسطر، وذاك المخترق لي قد أيقظ مشاعر مباغتة تحتاج للصراخ لعلي أتحرر منها؛ فماذا لو تخيلته يطرق بابي، وهو ينظر إليّ بخجل الزائر، وهو القادم دون سابق إنذار، وهو يقدم اعتذاراته أو ربما تفسيرا مقنعا لسبب الزيارة، لعلِّي أجالسه وأمارس طقوساً تمنيتها دهراً، أدعوه للدخول هل أغلق الباب أو ربما أتركه مفتوحاً.. أراقبه وهو يخطو داخل مملكتي وإحساسه بالوضع الشاذ الذي يشكله تواجدنا معاً تحت سقف واحد، خلوة لا شرعية، أم أترك الباب مشرعاً وأتقدمه وأدعوه للجلوس على الأريكة، هل أجلس أمامه؟.. وكيف أحاوره؟.. وقد يكون الصمت والتوجس ضيوفاً على مائدة الحوار، سيكونان شاهدين على لقائنا، جلسته على الأريكة لن تكون مريحة، قميصه الزهري والبنطلون الأسود سيفقدان رونقهما، وهما الدليل أنه قد هيأ للقاء بنفس الترصد الذي أرغمني على التواجد في هذا المكان لتخيله، سأستمهله لأجلب القهوة، ما كنت لأضيع فرصة انتظرتها طويلاً ومارست طقوسها مع مرآتي مراراً، بعينيه سيكون بريق خاص، نظرة أعجز عن تفسيرها

وأنا قد أكون مشوشة بالتفكير ساعتها في شكلي لأني لم أحمل نفسي مشقة الوقوف أمام المرآة قبل استقباله، قد يستغرب الأمر، ربما..

لكن هكذا أحسن حتى لا أشعره بأني كنت في انتظاره منذ آخر لقاء بيننا، حتى وهو أمامي مجرد خيال أجدني أحاوره سراً.. أفترس الصمت ولسان حالي يقول:

سيدي، أما تدري أنني أحببتك بكل تناقض العشق، بقربي منك وبعدي، بفرحي وأنا بين يديك وبجرحي، بالليل المنكمش في ثنايا صدري وفجرك المتربص بي، بحريق شوق قاتل وكلمات أغتالها حتى لا تبوح لك بسري المفضوح .

منك تعلمت أن للحب ألف وجه ووجه وألف باب نلجه فيطعمنا مذاقاته فجعلتني آخر اهتماماتك، فأنا ما كنت دوما في خيالك إلا طيف صمت مر بقلبك يوماً بدقة فاترة هزت كياني، وحتى وأنا بين يديك ما كنت إلا جملة اعتراضية لا تأثير لها على نص حياتك إلا من وجهة نظري أنا.

***

اليوم إجازة، صحوت متأخرة ورفقة فنجان قهوتي، تجولت قليلاً بالـ (نت) لم أجد ما يغريني إلا فيديو عن

الطفل عمار المعاق والذي تنبأ الأطباء أنه لن يعيش لأكثر من سنتين، فهو مصاب بإعاقة نادرة حيث لا يتحرك منه إلا عيناه ولسانه، لكنه تحدى كلام الأطباء وعاش لأكثر من 26 سنة درس فيها وتخرج من الجامعة بتفوق، وحقق حلمه في أن يكون صحافياً متخصصاً في كرة القدم، وحفظ القرآن الكريم.. راقني الفيديو كثيراً وأثار في نفسي أحاسيس متناقضة، ووجدتني أغلقه وأقرر الخروج. كان البحر وجهتي ومع ذلك لم أذهب إليه، اخترت أن أسير في الرصيف المقابل كنوع من التملص من هذا العشق المفاجئ للبحر وللمشي على رماله، تماماً كما يحدث بيني وبين زائر حلمي، مع أنني في غمرة الشوق لأن أرتمي بين أحضان موجه بملابسي، ولأبتل بمائه لعل رذاذه يلغي سنوات عجاف، ولأجدد طقوس الانتظار، وأسمع همسه لي وهو يقول:

"كم مضى من الوقت وأنت تنتظرين وترسمين على الشاطئ مرافئ لمراكبه لعلها تمر بك ولو خطأ، وكم مرة استمهلت الغروب لعلك تلمحين طيفه القادم من بعيد، وسنين عمرك تتكسر على كل موجة وتمر هباءً وأنت هنا.. غبية أنت حين تقتنعين أنه قادم بعد

كل هذا العمر، وسخافة منك أن تعيدي رسم ابتسامتك على أقنعة حرقتها شموس الانتظار، لذا اخترت تلصص النظر إليه من بعيد".

كانت خطواتي مسرعة شيئاً ما، أمر لم ألحظه إلا بعد أن وجدتني بالبيت لأتفقد ساعتي ولأدرك أن خروجي لم يستغرق مني وقتا طويلا، فسحة لم يبق لي منها إلا ضجيج السيارات وأثار الشمس على وجهي، فلون بشرتي الأبيض كثيراً ما يخزن حرارة الشمس حتى بعد عودتي لسويعات، أمرٌ يزعجني حقا ويجعلني أرتمي تحت رشاش الماء البارد، إلا هذه المرة، فالشارع أهداني أيضاً صوت تلك الأم العازبة التي تعرفت عليها من سنين يوم جاءت لتُلْحِق ابنها بالمؤسسة التي كنت أشتغل فيها، ولتروي لي قصتها الطويلة والمفجعة مع الأب الذي لم يرد الاعتراف بابنه، قصة من كثرة ما روتها صارت معروفة وصارت هي رهينة بداخلها، واليوم وبعد سنين، وحتى دون أن تلقي السلام توجه لي الحوار تتمة لحوارها مع شاب آخر خطى في الاتجاه المعاكس لأخذ مكانه دون قصد ولا استعداد، وفجأة ودون أن أخرج من صمتي المطبق تنهال عليّ عباراتها:

- أبلغت البوليس، أنا ليس عليّ من ذنب، قلت لهم ببيتي حشيش، ابني يبيع الحشيش، ألست على حق؟ تشاجر مع ابن عمه أمامي، ذاك الذي يبيع السمك هناك يبيع الحشيش. السمك فقط للتمويه. سأزيل له المفتاح وأغير القفل. نعم اليوم عليَّ تغيير القفل.. ابني طبعاً.

رمت بهذه الكلمات وقطعت الطريق متوجهة إلى ابنها على الرصيف المقابل.. عرفته من ملامحه، صار شاباً يجلس وراء عربة لبيع التفاح.. أكملت سيري مسرعة لأبتعد عن الصراخ، للحظة أحسست بخجل من أن يتعرف على معلمته بعد كل هذه السنين، وكأنني المتطفلة على أسراره التي انضافت لضجيج الشارع لتخلق بداخلي ضجيجاً أكبر، ولتجعلني أتساءل ما حدود الحقيقة والوهم في كلام هذه السيدة، حرقتها تحزنني حقا، وطفولتها التي اغتصبت على غفلة منها، ولتحولها في لحظة إلى أم لطفل يقربها في العمر ويطولها قامة ويتساويان في العقل، هو نفسه الشاب الذي تناقلت الأخبار عنه منذ أقل من سنة وقد قطع شرايين يده لأن أحدهم أخبره أنه ابن حرام، وهي بجانبه تؤكد الخبر

بشكل مستفز، مع أن الخبر لم يكن سراً وهي تصرح به علنا بحثا عن عزاء من أناس من كثر ما سمعوا حكايتها ما عادت تثير فيهم أي عزاء..

عدت للبيت أحمل بقلبي غصة من هذا العالم الحي، والذي أغرتني الابتسامات على الوجوه، وضحكات الأطفال، وكلام الحب، لأجدني متورطة فيه وفي أحزانه أيضاً وكأنها تطبيق فعلي لكلمة الدكتور إبراهيم الفقي وهو يقول: "لولا عكس المعنى لما كان للمعنى معنى" فعلا، كان عليّ أن أرى الابتسامات على الوجوه لأدرك الملامح التي رأيتها على وجه نزهة تلك الأم الطفلة.

قال لي أحدهم يوماً:

- لكي تعيشي سعيدة؛ عليك أن تكوني أنانية..

جملة حلَّلتها كثيراً وتقززت من محتواها لكنني أدركت أنها حقيقة، وأن هناك قلوب تجيدها أكثر من سواها، وربما وبالتطاول على رسائل ليست لي وتوجهي لطيف لا أعرف صاحبه برسائل كاذبة واتهامات مختلقة نوعاً من الأنانية، لكنها أنانية جميلة والناس لا تحب إلا الجميل منا، وحده من يدخل غرفة نومنا يرى شكلنا عندما نستيقظ من النوم، ويرى ملامحنا حين

نبكي، وضعفنا حين نتعثر ونسقط أرضاً، بعض الأنانية لن يؤذي أحداً، ويكفيني أنها أنانية مكتوبة على الورق، لساني الصامت أبداً لا ينم لا عن قبول لها ولا عن رفض.. وحدها عيني التي تستطيع أن تتلون بها فتتخيل حبيب الأنثى الأخرى وهو يخترق معي شوارع مدينتي العتيقة ويرسم شبحه في كل الأمكنة حتى لتعاد كتابة تواريخ المكان بمرورنا فيه، لأجدني أسأله: من أية شرايين ينبعث بداخلي ويختزل سويعاتي لتتحول إلى ثوانٍ بقربه ودهوراً للحلم به وزمناً لا ينتهي من إعادة ترتيب ذكرياته بداخلي، نفس الشوارع التي مررنا بها تسكنني وتسير في كما سرنا فيها، حتى المآثر التاريخية بثوارها المدافعين عنها ومدافعهم يسكنني بنفس التسلسل الحواري بيني وبينه، كيف تحول إلى معلمة بداخلي ترسم التاريخ من خلال رواية حكائية مرتجلة قلناها لحظتها وتخللها بعض من مزاحاتنا..

أهكذا تعاد كتابة تواريخ الدول في قلوب كل العاشقين المارين بأسوارها لتتربص بداخلهم ويصبحون ذاكرة حية عن زمن لم يعاصروه قط..

السقالة ببنائها الشاهق تحملني على أكتافها، وكأنما تعيد رسم ملامحه على الشاطئ المقابل ومع كل موجة ترتطم بها، كانت تعلمني قانون التجبر أمام صدماته؛ فيلفحني هواء البحر البارد فتبتسم له، وترغمني على البقاء لسويعات أكثر، حتى إذا ما هممت بالرحيل ظلت هي ترقب البحر في انتظار عاشق لم يأت، وموج يبلغ عن أخباره ما بين كر وفر ..

ما بكم تترصدونني، وكأنما أغالط فيكم زمنا لم أعشه وأرسم على جنباته تاريخي، ثم أسقطه عنوة، فليعش كل منكم حياته ولأعش حياتي وحلمي وخيالي، لم أقتسم سويعات وجودكم ولا اختلست أفراحكم، هي الرسائل الغريبة التي طرقت بابي وأرغمتني على التورط فيها، هي التي أعادت فتح شهية التأنق بداخلي والبحث عن ذاك المستفز لعواطفي، لِمَ تستثنيني الطبيعة من أنوثتي وترغمني أن أعيش الوحدة حتى أموت صمتا؟

ما ذنبي أن أعيش الحب وهما، وأن أتخيل فساتيني تراقص ظل رجل، أتراني أخطأت وأنا أحاول قراءة حلمي من جديد ورسم معالم كانت منحوتة بداخلي

منـد الأزل ونحـن نحتسـي فنجـان القهـوة بمقهـى علـى الشـاطئ حيـث النـوارس تقـيم عرسـها احتفـالاً بنـا، أم أن هنـاك أمـور نسـيانها يجعلنـا نبنـي حكاويهـا بشـكل مختلـف لعلهـا تكـون أجمـل مـن كـل مـا فـات وأقـوى ممـا كـان، أتراني أحـب أم أننـي فقـط أحـب إحساساً اختزلتـه بـداخلي فكـان يشـبهه، أو لنقـل أنـه هـو بكـل التناقضـات التـي تجسـدت فـي علاقتـي بـه؛ فأنـا مـا زلـت أبحـث عـن تلـك الرعشـة التـي جعلتنـي أرفـض كـل قصـص الحـب التـي أهـدتني إياهـا الطبيعـة لأنهـا التعبيـر الصـادق فـي رأيـي أنـا عما يمكن أن نسميه حباً.

مهمـا كانـت الأجوبـة، فسـيظل هـذا الخيـال بـداخلي هـو الرمـز وإن كـان تخـوفي أن تفشـل فـي أن يكـون هـو كمـا تصـورته، مختلفـا عـن الرمزيـة التـي هـو مقياسـاً لهـا، هـل يمكـن للصـورة أن تنتصـر علـى الحقيقـة وأن تظـل الحكايـات فينـا أقـوى مـن كـل الواقـع الـذي نعيشـه؟ فأنـا معـه مـا كنـت مجـرد أنثـى، وهـو كـان أكثـر مـن حبيـب وصـديق وسـند، كـان صـوتي وسـمعي وإحساسـي حتـى لأخشى أن أهرب منه بداخلي فيفتضح أمري..

أمــرُّ بــنفس المكــان وأتعمــد الجلــوس علــى نفــس الكرســي، نفــس الوجــوه ونفــس الألــوان حتــى العطــر المنبعــث مــن البحــر كــان هــو هــو، والنــوارس أجــزم أنهــا نفــس النــوارس تخطــت قــانون الطبيعــة لتكــون فــي نفــس المكــان هنــا لاســتقبالي، كــل شــيء كــان كمــا هــو حتــى إحساســي بــه، ونفــس الرهبــة المختلطــة بــذاك الفــرح الــذي ما كنت أحسه إلا بتخيله.

حتــى هــو كــان هنــاك يجالســني لنحتســي القهــوة، كــان يســترق ابتســاماتي عنــوة، وكنــت أخــاف أن يفتضــح أمــري فأشــير لــه بطــرف عينــي لكــي يتعقــل فيــزداد جنونــه ويرتعش الفنجان بيدي .. نفس الرعشة ...

تغتــالني الأحــلام فــي كــل مســاء بموعــد متــربص تقــتحم خلــوتي بضــجيج ذكرياتــه، تعبــث بــالتواريخ عنــوة، تعيــد حياكــة حكايــاتي معــه، بإضــافات مســتفزة لعلّــي أثــور لنفســي وللصــورة التــي رســمتها لخيالــه بــداخلي، أتــراه يعــيش نفــس هواجســي وتمــرد التــواريخ أم أنــه محصــن ضــد هــذه الثــورات. أن تعــيش ذكرياتــك مــع أحــد مــا فأنــت ملــزم بتــذكره كمــا هــو لدرجــة أنــك تلغــي دور الســنين علــى جبينــه فتــراه كمــا رأيتــه دائمــاً بمحاســنه وعيوبــه، لكــن

حينما نريد تخيله بداخلنا تتوه منا الصور وتتشكل ما بين الظاهر والباطن، نريده مثالياً في كل شيء .

بالتخيل أنت تملك كل الحرية في تشكيل ملامحه كما تحب، ووقتما تحب، ساعتها فقط تستطيع أن تتحرر من كل أدوات الرسم لتعتمد على أصابعك فقط لتشكيل ملامحه في فن مختلط ما بين الرسم والنحت، أتذكر أمي عندما كنت أعتز بفكري وأنا مراهقة وأشهد شجاراتها المتعددة مع أبي، فكنت كلما بالغت في وصف زوج المستقبل كانت تقول لي:

- عجِّنيه .

كنت أستغرب الأمر يومها لأجدني اليوم أنحته بيدين عاريتين، أحدد شكل عينيه بأصابعي وألونهما حسب مزاجي، وأشكل شعره شعرة شعرة، أطيله قليلاً حتى إذا لم يرق لي أقصره، أمرح وأنا أرسم شفتيه بأصابعي.. أمارس شغب العشاق بلذة بالغة، ألبسه على ذوقي وأراقصه فلا يوقعني أرضاً، أرغمه على الجلوس معي أمام التلفاز لنضحك على مسرحيات شاهدناها مراراً وضحكنا عليها مراراً، وأنا أضع رأسي على صدره مرة ويضع رأسه على رجلي مرة أخرى فنكون قريبين

أكثر، أحكي له تفاهات عملي ويشاركني حكايات يومه، شخصية مطاطية تتخذ كل الأشكال، وحسب ما يقتضيه كل ظرف، فارس يتقمص كل الأدوار، ويتشكل بكل الأعمار، فقط ليكون أميري المرافق لي. ملاكي الحارس. خادمي وسيدي.

أصحو وبداخلي شوق عارم للرسائل ولباعثها، لا أدري لِمَ، في يوم عطلتي بالذات، يتملكني هذا الكم من الاجتياح لمشاعري ليغرقني حتى النخاع في الأحلام. ربما لأنه اليوم الوحيد الذي أجدد فيه العناق مع سقف غرفتي وأنا متمددة على فراشي، محتلة هذا الجزء الذي عادة ما يحرمني منه المنبه كل صباح، أو لأنه اليوم الأقل توقعاً لوصول الرسائل، إذا ما اعتبرنا أن لساعي البريد يدٌ في تورطي بها، فقد مضت أسابيع على آخر رسالة توصلت بها، وبالتالي كل يوم تتأخر فيه تتزايد حيرتي وتكبر الظنون بمخيلتي، فهناك مليون سبب لعدم مجيئها في حين أن السبب الوحيد والكاسر للقاعدة هو خطأ في العنوان.

لا أدري لِمَ خطرت ببالي قصة كنت قد قرأتها فيما مضى عن امرأة توصلت برسالة بعد سنوات عدة

مـن عزلتهـا ممـا أثـار فضـول الحـي وسـاعي البريـد حتـى كانـت حـديث الشـارع لأكثـر مـن أسـبوع، حيـث طـرق بابهـا لأول مـرة مـن سـكان الحـي وكـل واحـد فيهـا يحـاول عـرض خدماتـه لعلّـه يتوصـل إلـى كشـف سـر الرسـالة لتكشـف لنـا السـيدة فـي الأخيـر سـرها، وأنهـا هـي الباعثـة فـي سـبيل - فقـط - أن تسـمع طـرق سـاعي البريـد علـى بابهـا، وربمـا لتـوهم نفسـها أن هنـاك أحـداً مـا فـي مكـان مـا يهـتم لحالهـا وينقش لها حروفاً من حبر ويرسلها لها.

حكايـة حزينـة فعـلاً، أربكنـي تـذكُرها، وكأنمـا هنـاك اشـتباه مـن أن أكـون أنـا مـن أرسـل الرسـائل الأربـع لـي، فـي غفلـة منـي، وتواطـؤا مـع ذاكرتـي التـي عـادة مـا تفتـر، أو لربمـا أن أكـون مصـابة بانفصـام فـي الشخصـية وعقلـي البـاطني يـداعب مخيلتـي بحلـم تركـز فـي مكـان مـا بـدماغي. ارتفعـت دقـات قلبـي، مـع أن الأمـر بعيـد جـداً عـن التصـديق، إنمـا هـو خـوف ممـا يجتـاحني وأنـا التـي يـوم قابلـت طفـلاً مصـاباً بالتوحـد فـي إحـدى الجلسـات التـي كنـت أقـدمها للأطفـال؛ فسـيطرت علـيّ فكـرة واحـدة، هـي أن فـي داخـل كـل واحـد منـا شخصـية مصـابة بالتوحـد، تنفصـل عـن العـالم لتعـيش ضوضـاءها الداخليـة، وإلا فمـا

يمكـــن أن نســـمي حالـــة التيـــبس العـــاطفي التـــي عشـــتها طـويلاً ودفنـت فـي دهاليزهـا، كـل هـذا وأنـا أمـارس لعبـة كنـت أحبهـا فـي صـغري وحتـى فـي فتـرة المراهقـة وهـي أن تركـز بعينـي فـي السـقف حتـى لتتخيـل لـك أشـكال وتسـتمر إلـــى أن تتحـــول الأشـــكال إلـــى شـــخوص تتحـــرك وترســـم أمامـــك مشـــهدا تســـتمتع بـــه لبرهـــة قبـــل أن تـــرغم علـــى ترك الفراش لسبب ما وما أكثرها.

اليـوم، وبعـد هـذه السـنين أجـدني مضـطرة إلـى تـرك شخوصـــي تكمـــل رســـم خيـــوط تواجـــدها، فيـــوم الأحـــد بالـــذات أرســـم فيـــه معـــالم عـــدة للراحـــة والاســـتجمام الـــذي عـــادة مـــا تنتهـــي بانكســـارات علـــى جـــدار واقـــع أنفـــض عنـــه دوما في اللحظة الأقل توقعا...

طرقـات علـى البـاب أربكتنـي وجعلتنـي أستحضـر كـل مـــا فـــات. شـــخوص الســـقف، والمـــرأة صـــاحبة الرســـالة وســـاعي البريـــد. أنـــاس كثـــر تـــزدحم بهـــم ذاكرتـــي ولـــيس فـيهم مـن الواقـع سـوى هـذه الطرقـات التـي تكـررت علـى بـابي صـباح أحـد، وقفـت أمـام نفسـي المطلـة مـن مرآتـي أســـتمد منهـــا قـــوتي وأســـتعين بهـــا علـــى رســـم الهـــدوء بداخلي وبعض الترتيب لشكلي الخارجي...

أمـر مربـك أن يُطـرق بابـك وتحـس أنهـا حالـة شـاذة لا تتكـرر إلا نـادراً، لحظـة قبـل أن أفـتح، كـان طـرف رسـالة يطـل مـن فتحـة الرسـائل.. أربكنـي الأمـر أكثـر، فلـيس بينـي وبـين ذاك المختـرق لحيـاتي إلا بـاب وحركـة يـد، فتحـت، لـم يكـن مـن أحـد إلا ورقـة بيضـاء مختلفـة عـن رسـائل سـبقتها، مختلفـة حتـى بإحساسـي بهـا، مجـرد ورقـة بيضاء انطوت لتشكل مربعاً صغيراً..

ارتفعـت دقـات قلبـي وتسـارعت علـى عكـس أطرافـي التـي تـرددت كثيـراً فـي فضـها.. وضـعتها علـى الطاولـة وبـدأت أنظـر إليهـا، جنـون مـا أمـر بـه، وجنـون هـذا الـذي يصـيبني مـن جـراء ورقـة لا حـول لهـا ولا قـوة، ومـع ذلـك تكسـر روتـين يـومي وتخترقنـي، قـررت ألا أفتحهـا إلا بعـد أن أجهـز فنجـان قهـوتي، الطقـوس الاعتياديـة اليوميـة التـي لـم ولـن تتغيـر حتـى وإن بحضـور رسـالة انتظرتهـا كثيـراً... فنجـان القهـوة ذاك الأنـيس الـذي رافقنـي بكـل لحظـات حيـاتي ومجـرد التفكيـر بـأني قـد أمنـع مـن هـذا الكـوب الأبـيض الكبيـر الشـكل ومـن متعـة التدفئـة بـه، واحتضـانه وارتشـافه كنـوع مـن التشـفي بقـدري لأمـر بعيـد حتـى فـي تصـوره، وهـو الآن الوحيـد الـذي يسـتطيع

احتضـان هـذا الاحتقـان بـداخلي، فأنـا انتظـرت الرسـالة طـويلاً وهـا هـي تطـرق بـابي ولكـي أقتحمهـا علـيَّ أن أكـون علـى كامـل الاسـتعداد النفسـي كمـن سـتقابل حبيبهـا لأول مرة..

جلسـت ترقـب الرسـالة وجلسـت أرقبهـا، حاولـت قـدر اسـتطاعتي ألا أقحـم حيـاتي فـي الـنص وألا أفـرض علـى هـذه الأنثـى مـا قـد يشـي بـي وبرؤيتـي الشخصـية لهـذا الكـائن الـذي اختـرق حياتهـا عنـوة.. كنـت كلمـا أردت أن أسـجل مـا يحصـل معهـا أتعـرى مـن نفسـي، أغتسـل كمـا طبيـب سـيحمل مشـرطه ليشـرح جسـدها لعلهـا تكشـف أمامنـا سـرها ومحاولـة إثباتهـا لوجودهـا داخـل نـص كتـب خصيصـاً لهـا، أشـفقت عليهـا مـن رسـالة أنـا نفسـي لا أدري مـا فيهـا. لكـم أكـره المـؤلفين الـذين يفرضـون علـى أبطـالهم تقمـص الأدوار التـي يريـدون هُـم وأفكـارهم وهواجسـهم، فتجـد بطـل الروايـة يلـبس المؤلـف ويـتكلم بصـوته ويعبـر عـن هواجسـه، لـذا قـررت مـن البـدء أن أظـل أراقـب عـن بعـد وأن أتـرك لهـا حريـة التعـري أمـامي، ولكـم تمنيـت ولـو ترتمـي بطلتـي بـين أحضـان المـوج وأن ترغمنـي علـى رسـم جسـدها وقـد التصـقت بـه ملابسـها

وتساقطت شعيراتها على جبينها فشكلت فوضى مغرية تشهي قرائي، لكنها كانت تفرض رأيها، وتظل بعيدة عن تحقيق رغباتي، وكأنها تدرك مسبقاً مراقبتي لها وتتبعي لخطواتها، فكانت تخجل مني وتفضل أن تعيش حلمها على هامش قصة حب أبطالها رسائل زرعتها عنوة تحت عتبة بابها إلا هذه الخامسة والتي جاءت بالرغم مني وأنا نفسي لا أدري ما الذي تحتوي عليه...

ازداد قلقي في نفس الوقت التي أجدها متحمسة لفضها، عبثا ألهمتها بأن تحتسي فنجان قهوة قبل ذلك، وأن أمنح لنفسي فرصة إيجاد حل لهذه الإشكالية، فكيف لي أن أمنعها من سبر أغوار الرسالة وهي التي انتظرتها قرونا ورسمت حولها عوالم أجمل، فكرت أن أسخر ريحاً عاتية تفتح النافذة وتعبث بالبيت وتمنحني فرصة إخفائها أو على الأقل تغييرها، لكنني تراجعت فليس هناك من منطق لهذا التصرف، بالعكس فقد يفتضح أمري وتدرك هذه الأنثى شغبي بالتلاعب بعواطفها.

- آسف.

كانت كلمة واحدة في وسط الورقة، كلمة واحدة كفيلة بإحياء كل المواجع. أربكتها وأربكتني أكثر منها. لم الأسف وعلامَ؟ ما أصعب أن تجد يداً طولى تتحكم في نص أنت اختلقت أبطاله، وأنت من رسم خطوطه، وأنت المتحكم الوحيد في تطوراته، أنت ولا أحد سواك يستطيع ترويض هذه الأنثى وإخراجها من شرنقتها، فمن أين أتى هذا الأسف ولمَ؟ والأهم هو على ما؟

في غمرة حيرتي بدأت أراقب بطلتي وهي تضع الورقة أمامها وترتشف القهوة بهدوء تام، هدوء ما كان ليخفي ثورتها الداخلية وحيرتها. كان عليّ التفكير في خطة بديلة، فإما أن أقبل بهذه اليد العابثة، وأن أتعامل معها كظرف طارئ وعامل طبيعي لا أملك له رداً، أو أرسم خطة هجوم من أجل حماية بطلتي، وحتى تكمل مسيرتها العشقية، كان تخوفي الوحيد هو أن تكتشف وجودي وتدرك أنني أنا من يحرك الخيوط ويرسم لها خطواتها وإن أربكتني أحياناً بأن سارت على هامش جسدها، ورفضت أن ترتمي في حضن العشق رغم حاجتها إليه.

كـم تمنيـت أن تكـون مجنونـة ولـو لمـرة واحـدة، أن تكسـر كـل القواعـد وتتخطـى كـل الخطـوط الحمـراء فـنحن فـي زمـن الـلا حـواجز، زمـن نـراهن فيـه علـى اختـراق كـل الـدوائر وتفجيـر الرغبـات ولـو علـى شـوارع مـن ورق، وأزقـة رسمت بحبر.

كـان الفنجـان فـي يـديها يلفـظ أنفاسـه الأخيـرة، وهـي مغرقـة فـي صـمت مطبـق حتـى كـدت لا أسـمع إلا أنفاسـي وكأنهـا هـي الكاتبـة وأنـا بطلـة الـورق... كـم تمنيـت لـو أتقمـص شخصـيتها ولـو للحظـات فـأمزق ورقـة الأسـف وأعلـن تمـردي علـى الشـوارع، فأرتـدي فسـتاناً حريريـاً يحررنـي، وأنـا علـى شـاطئ مـدينتي ورياحهـا العاتيـة، فأمـارس لعبـة التعـري طبقـا لقانونهـا، فـأتمنع وأنـا الراغبـة، وأرتمـي فـي حضـن مـوج يجيـد ملامسـة الأنثـى بـداخلي. جسـدان مـن مـاء ونـار يحتاجـان ليرسـما ثورتهـا علنـا فـي لقـاء عنيـف لـن يحتاجـا بعـدهُ لإعـادة ترتيـب الفضـاء، ليبقـى كـل واحـدٍ منهمـا، وكلمـا مـر بـالآخر يعيـد رسـم الرغبـة فـي تلـك الممارسـة الجنونيـة كنـوع مـن التحرش.

أن تطرق بابك رسالة تحمل كلمة اعتذار فلها ألف معنى برأيي، لعل أهمها أن هناك من أحس بأنه ارتكب خطأ في حقك، ولم تكن لديه الجرأة الكافية ليقف أمامك ففضل أن ينوب عنه بعض مداد على ورق أبيض (...)

في البداية أحزنتني الكلمة، ولكنني ، واليوم بالذات، لا أريد أن يضيع يوم إجازتي في تبرير هذا الأسف ، فلا أحد سيندم غيري، خصوصا إذا ما تصورت أنه أسف على الرسائل الأربع التي طرقت بابي وحررتني من شرنقتي، لذا قررت أن أنهي فنجان قهوتي وأمتطي صهوة الشارع ابتغاء لبعض الانتعاش والاحتكاك بوجوه قابلتها يوماً وما زالت ابتساماتها راسخة بداخلي.

اليوم أحتاج فقط لعدسة كاميرا أحتمي بها، وقد توثق حياة أخاف أن تلفظني يوماً وكأنني لم أعشها، كل شيء اليوم يحتاج لتوثيق نحلة تتسلل لفنجاني لترتشف منه فتغرق فيه. ورقة صفراء ترفض التحرر من شجرة أعادت استنبات جيل جديد من الورق الأخضر. قطة تعتلي غصن شجرة عال لترقب المارين. كل شيء

إلا أنـا، لا أنـا ولا طيـف رجـل، للحظـة وقبيـل الغـروب بثـوانٍ وجـدني وجهـا لوجـه مـع البحـر، كـان هنـا أمـامي، موجـه الـذي يكـر ويفـر لكأنمـا يتحـرش بـي ويـدعوني لكـي أقارعـه، لكننـي أعـيش ثـورتي الداخليـة ومحاولـة اتخـاذ القـرار الصـائب فـي الحيـاة. لأول مـرة أدرك أنهـا ليسـت لـي وإنمـا هـي مجـرد نـص مسـرحي أنـا ألعـب فيـه دور البطلـة التـي تمسـك كـل الخيـوط لتنتهـي علـى حبـل المشـنقة، فيصفق الحضور، ويسدل الستار.

أمـرٌ محـزن، فعـلاً، أن تختفـي كـل الكائنـات، وأظـل أنـا وهـذا الصـمت المطبـق نعـانق وشوشـات مـوج بحـر ألـتمس مـن الأنجـم بعـض الضـوء ليسـتدل علـى وجـودي، هنـا، وأنـا بـداخلي رغبـة أن أرتمـي فـي حضـنه ليكتشـف أنـي صـرت مجـرد حجـرة صـماء، وأن النـار المسـتعرة، والتـي كانـت تغريه بملامستي، صارت أصقع منه..

لا أدري كـم مضـى مـن الوقـت وأنـا هنـا، ولا شـيء يغرينـي لمعرفـة ذلـك، فعنـدما تكتشـف أنـك كـائن محكـوم عليـه بـالموت مسـبقاً فـي لعبـة لـم تـدخلها طواعيـة - تمامـاً - كحلبـة الرومـان حيـث المتفـرجين يسـتمتعون بتتبعـك وأنـت تتجـول عاريـا فـي سـاحة دائريـة بهـا أبـواب عـدة كـل

واحد منهم يخفي لك مفاجأة قد تكون رسالة من تلك الرسائل التي تلبسك فساتين زهرية، وربما تهديك فارس أحلام يحملك على صهوة جواده الأبيض ويطوف بك الحلبة وسط تصفيق وتهليل من الحاضرين ليختفي ويتركك لأبواب أخرى قد تخفي وراءها وحشاً يفترسك، أو ربما نبتة حب تشم رائحة الموت منها وتنال حتفك دون أسف..

كيف أكتب صك تحرر بطلتي لأمنحها الحياة من جديد بعد أن اكتشفت وجودي وأي وسيلة قد تبرر ما فعلته بها وبعواطفها، جنون ما حل بنا، لأول مرة أحس أن الحروف تتحول إلى حبل يخنقنا معاً ويثبت فشلي في كتابة أول نص روائي، مالي والروايات أنا وأبطالي القصصية تولد وتموت بين بضعة أحرف قد لا تتعدى المشهد الواحد أحياناً وحتى قبل أن أرتبط بهم عاطفياً ودون أن تتملكني الشفقة وأنا أزج بها في غياهب السجون، وحتى إن قررت أن أشنقهم في ميدان عام دون رحمة ولا شفقة فالأبطال التي تولد على الورق تلقى حتفها حتماً على الورق.

كيف أعيد بطلتي للحياة، كيف أستعيدها بعد أن تخلت عن أوراقي واعتنقت ظلمة الشاطئ الموحشة لتعلن تمردها عليّ وكأنها تحاول محاكمتي أمام هذا الموج الذي طالما دفعتها لترتمي بحضنه ولأشهد مراسيم عشقهم المتبادل، أغراني صمتها المطبق وخيوط الفجر التي بدأت تعلن قدومها باستحياء أن أتقدم نحوها وأنحني تماماً كطقوس الولاء ولأعلنها أميرتي المتوجة، نقطة قوتي، الأنثى التي حرمني المجتمع والعادات من أن أعلنها جهراً، لكنني أيقنت أنني مهما فعلت ما كانت لتغفر لي فعلتي، فليس لي من حل إلا أن أرسل لها رسالة جديدة، رسالة تكون الفاصل بين ما مضى وما قد يأتي، رسالة قد تحمل من المعاني ما قد يجعلها تدرك أنني أحررها من تبعيتها لي وحتى تتجاوز ما قد خططته لها، ولتملك القرار بيديها، فإما أن ترضى بلعبة الورق كما رسمتها لها أنا أو تعيد رسم حياتها كما تشاء وبالشكل الذي تريد، ويكفيني شرفا لو تمنحني فسحة لأقوم بدوري.

غريب.. كيف جعلتني أستسلم لهذا الجنون وأن أقضي الليل أتعقبها وأتأسف على أني أغرقتها في حلم

طالما داعب مخيلتي، وما كنت أظن أنه قادر أن يغير من روتين يومنا ويجعلنا كمن يطارد خيط دخان، ظنا منه أنه سيمسكه. أنحن فعلاً قوم يعيش الحلم أكثر من واقعه؟

استيقظت المدينة العتيقة، بعد أن نشرت الشمس بعض دفئها بالمكان، ولمحت ضيفتي تمدد ساقيها المتجمدتين محاولة الوقوف. كان البحر قد قرر أن يكمل دورة المد والجزر فاقترب منها أكثر كأنما يدعوها للرحيل حتى تباشر حياتها من جديد، وتمنحه فرصة طمس معالم ليلة لم يكن فيها بالبطولة التي طالما وشمت الصخر والبشر.

سارت بطلتي بمحاذاته كنوع من العرفان لهذا الكائن الضخم الذي قضى ليلته يحرسها ويمتص غضبها، أو لعلها أدركت أنه ليس ذلك الوحش المخيف الذي طالما أخافها.. كانت تنظر إليه، وكأنما تواعده سراً بعودة قريبة يكون فيه الدفء قد عاد لأوصالها، وربما لقلبها أيضاً، لقاء يكون لهما يمارسان فيه طقوساً طالما تمنعت عنها.

كلما كانت تخطو في اتجاه البيت إلا وخيار الرسالة يكبر بداخلي، وكلما حاولت استجماع الحرف إلا وتطاردني رسالة سبق وأن نشرت بموقع ما، حتى إذا ما أغضبتها فهي لن تكون إلا قصيدة سقطت سهواً ببريدها، وعادة الأشياء التي تطرق بابنا سهواً لا تترك أثرها طويلاً في نفوسنا، نعتبرها هدية من القدر توجهنا لأمر ما تماماً كريح تعبث بلباسنا ونحن برفقة ما، أو حين يسقط فنجان قهوتنا فيتكسر فلا نهتم لبقع القهوة على ملابسنا بل نفرح لفكرة سادت بيننا من أن الأمر يبشر بالخير.

بطلتي تخطو في اتجاه البيت وأنا ألملم حرف القصيدة، وأنثرها على ورقة مشابهة شيئاً ما للرسائل الأولى حتى توحي لها بما أرمي إليه، فالنار التي أشعلتها بعض حروف على ورقة شفافة قد لا ينطفئ إلا بحقيقة شفافة.

الرسالة الأخـيرة

عفـواً سيدتـي

عفواً سيدتي

فرسائلي جاءت إليكِ خطأً

كان خطأً من ساعي البريد

كان خطأً أذاب كل الجليد

فعفوا إن قلت

أحبكِ

وعفوا إن قلت

أعشقكِ

فقد كتبتها لامرأة من آلاف العهود

كتبتها لامرأة جمَّدت كل الردود

فعفوا عن خطأٍ غيـــر مقصود

أعرف سيدتي

أعرف أن رسائلي دامت شهوراً

ورسمت الكون قصـــــوراً

وحدائق وفراشات

فعفوكِ سيدتي

فرسائلي ما كانت إلا كلمات

لامرأة لا تعشق مني إلا الكلمات

فعفواً سيدتي

فقد كانت خطأً من ساعي البريد

كانت خطأً أذاب كل الجليـــد

سيدتي

أعدكِ أن لن تصلكِ رسائلي

بعد اليوم

فاهجري قصوري

وانسي مروري

ولكِ كل احترامي

وتقديري

قــرأت الرســالة، تمعنــت فــي حروفهــا ثــم أضــافتها للــرف المعلــق بــالجزء الأيمــن مــن مكتبتهــا مــع الأخريــات، ســارت بخطــوات واثقــة نحــو غرفــة النــوم، وحتــى دون أن تغيــر ملابســها تســتلقي علــى ظهرهــا محدقــة إلــى نفــس

السقف، وكأنما تجدد موعدها معه، قبل أن تغلق عينيها وتستسلم لنوم عميق، لتتركني أعيد ترتيب الأوراق بداخلي مكتفية بالدور الذي رسمته لي بطلتي من أن أتتبع خطواتها وأصور كل تحركاتها، مجرد قلم أو عدسة كاميرا لا دور لها سوى التقاط تحركاتها دون تأثير عليها، لعل هذا ما كنت أتمناه مع فارق بسيط هو أنني كنت أمنح لنفسي فرصة التسلي بأن أرسم على نافذتها ورود حب، وأن أنثر بغرفتها عطر رجل، وأنا أدرك تماماً مدى اشتياقها للمسة ذكورية في حياتها، لطيف يلتف حولها ويخترق أنوثتها فتمارس ضعفها له ويلبسها رعشة تمنتها طويلاً، فيعيد رسم تعرجات جسمها بأنفاسه، ثم يضع قبلة، هنا وهناك، كعلامة وضع اليد لتعلن نفسها محتلة له، ويكون هو مسانداً لصغائرها وتكون سجلاً يكتب عليه جولاته، أرض متوحشة تحتاج لاجتياحاته، لأن يعيد نحتها بيديه، تستسلم له وتتركه يعبث بها .

يا لجرأتها ووقاحتها حين تغط في النوم وتتركني، هنا، رهينة أحلامها ومنتظرة لساعة استيقاظها عقابا لي لأني حاولت ابتهاجها، والابتهاج من خلالها.

يـــوم جديـــد وتمـــرد جديـــد. نمـــت كثيـــراً لأصـــحو وبـداخلي رغبـة لاكتشـاف هـذا العـالم المثيـر والمتنـاقض. كـل القنـوات التلفازيـة اليـوم، متفقـة علـى إعـلان رفضـها لمـا يقـع بـوطن عربـي حيـث التقاتـل علـى أشـده والتطـاحن مـن أجـل اكتسـاح مسـاحة أكبـر حتـى لـو مـروا فـوق جثـث الرضـع، بـل ربمـا فظاعـة الحـرب هـي إسـتراتيجية مـن أجـل تخويـف الآخـر، والآخـر يتفـنن أكثـر فـي التمثيـل بأشـلاء الصغار وانتهاك الحرمات.

مـؤلمٌ جـداً أن لا تجـد سـبباً مقنعـاً لكـل هـذه الحـروب. وأنـا القابعـة فـي ركـن غرفـة مهمـا تمـددت لا تتجـاوز حـدود صـفحة وأحـس بـأنني أتيـه فيهـا، فأبحـث لـي عـن مـن يؤنس وحدتي ويزاحمني فيها ولا أجد.

لفظتنـي عتبـة بيتـي كنـوع مـن الهـروب لاكتشـاف عـالم أكبـر ولأقتـرب مـن أنـاس يجمعنـي بهـم الشـارع دومـاً، ربمـا لأتأكـد أن حمـى التطـاحن لـم تصـبهم بعـد. الكـل منهمـك فـي أمـر مـا وأنـا شـغلي الشـاغل اليـوم، أن أحـرر الشـوارع مـن خمولهـا، ورغبتـي الكبـرى أن أغـزو المكتبـات بحثـاً عـن كتـاب مـا، أو عـن قـدر آخـر يعيـد رسـم مسـار

حيـاتي بشـكل مختلـف يسـمح بـبعض التـوازن بـين المرغوب فيه والمرغوب عنه.

أكـره المكتبـات الكبيـرة حيـث الصـمت سـيد المكـان، وحيـث تجـد الكتبـي قـد تحـول إلـى شـبح مـن قـرن مضـى بنظـارتين كبيـرتين تمنحـه اسـتراق النظـر إليـك بتـوجس كبيـر وأنـت تتجـول بـين الرفـوف حتـى يفقـدك شـهوتك للقـراءة، ويتملكـك إحسـاس أن الكتـب هنـا مرتبطـة ببعضـها الـبعض فتتملكـك الرهبـة مـن عـزل إحـداًها.. وحـدها مكتبـة الرصـيف تمنحنـي الحريـة فـي التجـول، والكتـاب المطـروح أرضـا يغريـك أن تمـارس انحنـاءك لـه وتجلـس القرفصـاء، وكأنـه طفـل صـغير يـدعوك لقبلـة فتمتد يدك لالتقاطه.

فـي البدايـة كنـت أتضـايق مـن عـرض الكتـب علـى الرصـيف، وأجـد الأمـر مهانـة لهـا خاصـة وأنهـا تتسـاوى فـي الأثمنـة، كمـا مسـاواتها علـى أرضـية واحـدة، حيـث تصـبح مجموعـات ورقيـة لا يميزهـا كونهـا لكاتـب مشـهور أو مغمـور ولا حتـى تخصصـها المعرفـي. لكننـي الآن اعتـدت الأمـر ووجـدت فيـه فرصـة لاقتنـاء كتـاب أعـرف ثمنـه

مسبقاً، زيادة على أن العرض بهذا الشكل قد يعرفني بكتب ما كنت أعلم بوجودها أصلاً.

أغلب ما هو معروض، اليوم، هو أشكال متنوعة من القوانين والدساتير، كتب تمنيت، فعلاً، أن يمتلكها الجميع بمجانية لعلها تساعدهم على فهم ما لهم وما عليهم.

اقتربت أكثر من الكتب المعروضة، الأغلفة بدأت تفقد بريقها من لفحة الشمس وعلتها ضبابية خاصة، منحتها توقيعا مشتركا، كانت وحدها عيناي تحملق في فلكها لاهثة وراء العناوين، فالتعود ألهمني أنه دائماً هناك كنز وراء هذا الكم الهائل من المخطوطات، تماماً كما تعودت تمشيط الشاطئ بعد أن تملأه مياه الفيضانات بأخشاب الأشجار وممتلكاتهم كنوع من الغنائم لهذا البحر المغرور دوماً بصولاته وجولاته وانتصاراته التي يجددها مع فصل كل شتاء.

تصفيف الكتب يجعل تمشيطها أسهل وقراءة العناوين أوضح، وغالباً ما كان يستعان بعتبة عالية لتبيان نوع من اللا تراتبية الحرفية لسبب أو لآخر، وهذه العملية عادة ما توجهنا للبحث في الحروف التي

أخـذت نسـبة مـن التشـريف بـأن نالـت هـذا الاعـتلاء الضمني.

حاشـية زرقـاء علـى لـوح أبـيض رسـمت عليـه أشـكال معينـة وكتـب عليـه "الكرسـي الـوهمي"، عنـوان مثيـر والأكثـر مـن ذلـك أن تلـك الزرقـة مـا زالـت لـم تنـل منهـا العوامـل الطقسـية ممـا يبـين أنـه جديـد بهـذه الممارسـة الرصيفية.

لا أدري مـا الـذي أثـارني فـي هـذه المجموعـة، لعـل لـون مـدينتي المتشـبث، كيـد تلملـم الـورق مخافـة تنـاثره، أو ربمـا الكلمتـان اللتـان جمعتـا مـا بـين شـيء مـادي وآخـر معنـوي ليكونـا علامـة اسـتفهام فـي خـاطري، أو أمـراً خفيـاً لم أدركه بعد.

انشـغال البـائع شـجعني لأنحنـي وأمـد يـدي لآخـذه ولأجـد يـداً أخـرى تمتـد نحـوه بـنفس الإصـرار، وربمـا بـنفس الهـدف، يـد ذكرتنـي أولاً، بالعـالم الخـارجي الـذي عـادة مـا انسـلخ عنـه كلمـا أسـرتني عنـاوين الكتـب. أصـرت أصـابعي علـى التمسـك بالكتيـب كنـوع مـن الفـوز بسـباق مـا كـان متوقعـا أبـداً، ودون حتـى أن أرفـع عينـاي لـذلك الآخـر الـذي حـاول اخـتلاس اكتشـافي لهـذه الزرقـة اللامعـة تمامـاً كمـا

اختلست أنا الجلوس على كرسي لم يكن لي يوماً من خلال رسائل لا علاقة لي بها ومع ذلك امتطيت صهوة حروفها، ففي كل مكان كرسي للاحتلال المؤقت.

قررت التمسك بهذا الفوز متجاهلة هذا الواقف بقربي، قلبت الورق لمحت بعض حروف متناثرة، كلمات تبرق في مخيلتي، تربطني بذكرى ما.. مددت يدي للبائع بالثمن الذي كنت قد جهزته قبلاً، نظر إليّ، وكأنما كان يريد قول شيء ما، لكنه تراجع وتركني أرحل عن المكان. كان ذلك الطيف ما زال واقفاً بجانبي، لمحت عقاله الفلسطيني المنسدل على كتفيه، وقبعة انحنت لتغطي جانب جبهته.

لا أدري لم تعمدت أن أحييه بابتسامة رقيقة، ربما اعتذاراً مني على فوزي المستحق، وانطلقت أطوي المسافات نحو مكان أستطيع أن أعتلي فيه كرسي القصة وأختلي بحروفها.. كل حرف أعتلي صهوته إلا ويقربني من شبح ذلك الطيف المنغرس بين الجمل، كأنما زرع رائحته بين طيات الكتاب، لعله يذكرني بأن فوزي بالكتاب ما كان إلا تنازلاً منه لا استحقاق مني، ومع ذلك كانت خطواتي ترسم على الأرصفة وثوقها

وتستمد قوتها من هذا الكتيب المنغرس بين أصابعي، والذي يحيلني على حكايات عدة لنساء بيني وبينهن بعض التشابه.

وكلما انغمست بين الحروف إلا وانتفت كل المؤثرات الأنثوية لأكتشف هذا الرجل القابع بين الحروف والمحتضن للأحداث يحركها بشغف كبير كلاعب كراكيز بارع... والغريب أنني كنت معهن امرأة تحاول أن تتخذ لنفسها مكاناً على كرسي تناوبت عليه نساء عدة ما بين أم وابنة وأخت وحبيبة، أحاول أن أكون أحداهن أو لِمَ لا بصفة مميزة كتعويض على حرمان عشته في زمن ما.

تتشابه الشوارع كلما اقتسمتها خطواتي وتتشابه الوجوه وحتى الأحاسيس، وكنت أنا العابرة من الأمكنة دوماً، الباحثة عن شيء ما محاصرة بإحساس يرسم لي دفئاً قادماً أسعى إليه دون تردد.. وأراه بعين اليقين بعض فرح.

وأنتظر وننتظر.. والقادم دوماً يباغتنا في اللحظة الأقل توقعاً، وفي أمكنة غير مألوفة كنوع من

الانفصال، وكأنما يحتم علينا نوعاً من الانسلاخ عن ماهيتنا، ويشترط أرضاً محايدة للتعايش.

كرسي الرخام بالمحطة الطرقية بارد جداً، وتواجدي بالمكان لسبب أبرد وأغرب، بالصدفة تتعطل الحافلة التي تقلني الى العاصمة، وأجد نفسي هنا منتظرة بالمكان الذي عشت زمني أهابه من كثر ما سمعت عنه من عمليات الإجرام والسرقة والتحرش.

هناك أماكن ترسمها ذاكرتنا بالرفض المطلق، ولو أرغمنا على التواجد فيها فستكون لحظة جحيم لا تلغيه همسات المتواجدين ولا حواراتهم وتظل بين خيارات لا خيار فيها، فلا أحد يمكنه الجلوس على كرسي من صقيع ولا المشي بين يمين ويسار على بعد مترين من ممتلكاته الخاصة خوفا من أن تمتد لها يد آثمة، ومنتظراً أمراً لا تبرير له إلا تآكل وسائل النقل بفعل الزمن وغياب المراقبة.

المحطة الطرقية عالم غريب، يجمع شتات المدن الأخرى ليعزفوا لحناً يجمع بين صدى الأقدام، ونداءات العمال، وصياح الباعة المتجولين. كنت مجبرة على الانغماس بالمكان بصمتي المهيب، لولا أن اخترق

جـداري المـانع طيـف مـر حـولي، فيـه بعـض مـن مـاض، لمحتـه يرقبنـي قبـل أن يعلـن تأكيـده لشـكوكي مـن خـلال ابتسـامة خاطفـة قبـل أن يختفـي بـين المـارة ليتـرك وراءه استفهامات عدة وربما تحية بسيطة برأسه.

مـن يكـون هـذا الملتحـف بـالغموض، وكيـف يختـرق خـوفي فـي اللحظـة الأقـل توقعـا ليعزلنـي عـن هـذا الفضـاء الصـارخ ويجعلنـي أتتبـع خطواتـه وهـو يختـرق المـارة متخـذاً لنفسـه هالـة الثـوري المسـتعد للانفجـار بعقالـه الفلسـطيني المنسـدل مـن علـى كتفيـه غفـوة مـا كـان ليقطعهـا صـوت المـارة، ولا أبـواق الحـافلات، ولا حتـى صـراخ هـذه الأم المتشـردة، وهـي تنهـال علـى صـغيرها بكـل أنـواع الشـتائم دون مراعـاة للمـارين بجوارهـا، والتـي كلمـا حـاول أحـدهم توجيـه الحـوار لهـا إلا وكـان لـه نصـيب مـن قـاموس الشـتم، وربمـا حتـى بمحاولـة ضـرب، وصـغيرها الـذي يبـدو أنـه تعـود علـى الأمـر يلعـب بجوارهـا ويقفـز فـي كـل اتجـاه، ربمـا هـذا النـوع مـن التواصـل الشـاذ مـا هـو إلا دليـل عـن تآلفهمـا ورفضـهما لهـذا العـالم الـذي لا يعترف بهما .

كلها ثوان وتجده قد استند إليها وهي في لحظة استرخاء ليرقب المارين وقد اتخذ من صدرها متكأ دافئاً. تناقض غريب لم أتعوده لكنه لا يختلف كثيراً عن وقوفي بهذا المكان الغريب في انتظار إصلاح حافلة متهرئة، وباحثة عن شبح طيف يتحرش بي ويحيلني على كتاب اقتنيته في لحظة ما ولم أتمكن حتى من اختراق حروفه بالشكل الذي يليق.

ما أجمل أن نلتقي في كل مكان كنوع من التخاطب اللا مقصود وترحل بعيداً، وأظل ألاحق فيك جسدي الهارب مني، جسدي الهارب إليك..

وأخيرا تنفتح أبواب الحافلة فأرمي بأمتعتي في جوفها وأعتلي مقعدي. الكرسي المجاور محجوز مسبقاً، وضعت به حقيبة بلون الرماد كأنما تعلن عن صاحبها دون إفصاح، لا يهمني الأمر، فلعبة الانسلاخ عن الواقع عادة أتقنها، ويكفيني أن أغمض جفني وأرسم عوالم عشتها قبلاً لتكون قوس قزح بجناحين ورديين لمكان ليس فيه غير الفرح والدفء الذي وَهَبَتْنِي إياه الحافلة يغري بالحلم والتعب الذي أسدله التوجس والترقب لساعات بفضاء المحطة الصارخ لسبب آخر، لألتمس

الأمـان بـداخلي لعلـه يكـون دلـيلاً جديـداً علـى انتصـار مـن نوع آخر.

كـم مضـى مـن الوقـت وأنـا بـزورق الحلـم البهـيج لأفـتح عينـي وأجـد الحافلـة قـد انطلقـت تاركـة وراءهـا أناسـاً منتظـرين ومـروراً آخـر عبـر مكـان يتـيح كـل أنـواع العبور المتوقع وغير المتوقع.

كـان الليـل قـد بـدأ يعلـن احتلالـه للـتلال المجـاورة علـى موسـيقى حفيـف الحافلـة المتسـللة عبـر طريـق رسـمت الأشـجار مسـاره بعنايـة فائقـة، انسـياب زود مـن إحساس بالأمان بداخلي:

- أعجبك؟
- ماذا؟
- الكرسي الوهمي؟

مـا بالقـدر يعيـد مـداعبتي فـي اللحظـة الأقـل توقعـاً، كـان هـو الجـالس بقربـي بعقالـه الفلسـطيني المنسـدل علـى كتفيـه، وشخصـيته البـارزة، وكأنمـا عـاد ليبـارزني وليتحـداني لعلـه يفسـد إحساسـي بالانتصـار يومهـا، يـا لـه مـن منهـزم مكـابر أو لعلـه أدرك أنـه اسـتطاع أن يـزرع بداخلي هذا الكم الهائل من التساؤلات:

- من أنت؟

- صاحب الكرسي الوهمي..

قالها بابتسامة قد تخفي تهكمه، لكن، حتما، ما كان ينظر إليّ حين كنت أضمر فرحي بداخلي به، كونه رفيق طريقي اليوم.. أي كائن أنت الذي تحضر دون انتظار، وتغيب دون أن أحس، تبدأ جملتي ولا تتممها، أبداً، لأنك تتعمد أن تكون حياتي معك مجرد نقط لا تنتهي، فأظل المتعطشة لك المنتظرة دوماً.

من أنت؟ وكيف تنبعث من أشلاء الأمكنة وتتحرش بوجودي كنوع من التحدي لأنوثتي، وترتسم في كل مكان وكل زمان. حتى وأنت تجالسني تتعمد رسم بصرك بعيداً، وكأنما تحاور غيري وأنا الجالسة المتوسلة لتعرف من أنت وكيف اخترقت ضعفها بلحظة غير متوقعة، والأخرى التي نحتتك بداخلها بأصابع مرتعشة لعلك تكون الحبيب المنتظر.

- أنا أحمد ... وأنت؟

كم غريب أن لا أحد قبل الآن سألني عن اسمي، أترى لي واحد كباقي الخلق أم أنني نبتة طفيلية خلقت فقط لتعيش في الخفاء على الورق وتموت ببعض

حـرف. الاسـم يعنـي الوجـود والكيـان والهويـة، وأنـا قبـل اليـوم كنـت كتلـة مشـاعر تختـرق الأزقـة وربمـا تنتظـر رجـلاً لتولـد بـين يديـه. أنـا هنـا أنثـى عطشـى تنتظـر مطـراً يبللهـا. أنـا المبحـرة علـى سـفينة مـن ورق، الهاربـة مـن سـطوة الوحـدة والمدركـة أنهـا ميتـة لا محالـة إذا لـم تعـش قصـة تحييهـا وتعـيش مـن خلالهـا. أنـا حلـم لأنثـى حقيقيـة حرمتهـا الأعـراف والعـادات مـن تحقيـق رغباتهـا الأنثويـة فاختلقتني لتعيشها من خلالي.

- أليس لك اسم؟

أيقظنـي صـوته المـتهكم مـن غفـوتي، وصـراخ الحـروف بـداخلي وبحثـي الـدائم عـن سـبب للعـيش تحـت سـطوة أنثـى رسـمتني كتلـة نـار، وتركتنـي أجـوب الشـوارع أبحث عن طيف هذا الرجل.

- حلم... اسمي حلم..

صـمت كثيـراً قبـل أن يلتفـت إلـيّ، نظراتـي المتوجسـة أربكتـه وجعلـت مقلتـه تعلـن عـن أمـر مـا مخـزون بذاكرتـه، كـان كتلـة مـن أمـور مبهمـة، كـان عالمـاً غامضـاً، مرتبكـاً، ضـائعاً، متوجسـاً وكنـت الشـرارة المتوسـلة لقطـرات مطره، لبعض حرفه.

- لم يعد لدينا وقت.

- لم؟

لم يجب، اعتدل في جلسته وأغمض عينيه وغاب كثيراً. جسمه الضخم كان جداراً عالياً، وكنت الطفلة العابثة المتوسلة، أتسلقه بعيني فيرتد بصري ويرتكز على ملامح وجهه وعينيه المغمضتين، وهما يكتسبان طولاً مصطنعاً، إذ كلما مرت الحافلة قرب عمود نور أخال جفنه قد رمش فأرقبه أكثر.

كيف تجعلني نابتة تحت جدارك أنتظر رحمتك وأهاب أن تكلمني فلا أجيب فأجدني من المغضوب عليهم، وربما أطرد من عالم لم أدخله بعد.

تذكرت الخط الفاصل بيني وبينه، أحسست أن ذبذبات جسمه بدأت تتحرش بي، أغراني تمردها فاستسلمت لهذا الإحساس الشاذ وقررت أن أقلد غفوته، ففي الخيال دوماً عالم أكبر وأعمق. كانت يداه قد بدأت تتسلل للمس بعض أصابعي المرتبكة، سرت في أوصالي رعشة جميلة زودت فعل الجاذبية إليه، استمررت في التظاهر بالنوم وشفتي ترسم تعطشاً للحظة مرتقبة، حيث أنفاسه تلتقط ما تبقى من الهواء

الفاصل بيني وبينه في لحظة خلدتها الذاكرة دون ذكر لا للمكان ولا للزمان؛ فالظلام هنا يتستر على الطريق وكأنما يجعل من لحظة انتظرتها كثيراً لحظة موزعة بين أمكنة وأزمنة متعددة، استسلمت لهذا الانهزام الجميل.

استسلمت إلى أن أيقظني ضجيج العابرين والمحطة، فتحت عيني لأجده قد تبخر واختفى ولم يتبق منه إلا بقايا أنفاسه العالقة بي، ورقم هاتف دسه في جيبي فسقط مني لما هممت بالوقوف فالتقطه بعض السيارة.

أتعبني الركض وراءك، جنونك الذي يباغتني، تأتي كحلم صباح وترحل بسرعة، ولا يبقى في الحلق إلا بعض ريق يدل على مرورك، وتترك لي فكراً متعباً يحاول تذكر تفاصيل زيارتك المفاجئة دون أن ينجح.

تمر بالمكان، تنثر شعراً، عطشاً، ترسمني بفصول عدة فأراني ورقة صفراء تركها خريفك على كرسي الانتظار، ومرة تعرضني لزخات المطر كي تتلذذ برسمي على صفحاتك مبتلة ثم ترحل دون أن تمنحني فرصة تغيير ملابسي لعلي أتدفأ بك.

مـن أنـا بالنسـبة لـك أيهـا العـابر فـوق خريطتـي؟ وكيـف تجـرأت علـى وشـم شـفتي، ثـم الاختفـاء بعـدها، وأيـن يسـمح لـي بـأن أضـع بصـمتي بحياتـك، أترانـي تلـك المقبلـة بـين امـرأتين أم أنـي إحـدى المـرأتين كمـا يقـول نـزار قبـاني فـي إحـدى قصـائده حـين يقـول، بـين حـب وحـب أحبك أنت.

تـذكرت رقـم هاتفـه، فرسـمت الأرقـام علـى هـاتفي واتصـلت، هاتفـه معطـل أو منشـغل، كـررت الاتصـال كثيـراً، وكأنمـا ألاحـق وهمـا، ومـع ذاك أمنحـه كـل الأعـذار التي لم ولن يمنحها لي أبداً.

علـيّ أن أكـون علـى اسـتعداد تـام لتقبـل مـا قـد يصـدر منـه، وبصـدر رحـب وحـده يسـتطيع مـراودة الأنثـى بداخلي.

قطعـت المسـافة التـي تفصـلني عـن تـرددي وعـن حيـاة أنسـلخ منهـا مـن خـلال خلـق جسـر يربطنـي بعـالم وردي يكـون بطلـه هـو، طيـف وشـم أنـوثتي فـي اللحظـة الأكثـر انتظـاراً، اسـتمررت فـي الاتصـال بـه وكـأني أدرك أنني أمسك الرقم السري لسعادتي.

جاء صوته صراخاً يتدفق من بين أصوات متعددة.

- أهـلا أختـي، آسـف، كنـت قـد تـأخرت لـذا انسـحبت دون وداعك.

مباغت حتى رده على الهاتف:

- كيف عرفت أنني أنا؟

- الآن أختي نحن نعتصم أمام مبنى البرلمان.

انقطـع الخـط وتركنـي معتصـمة فـي مكـاني أنـا الأخـرى محاولـة اسـتيعاب مـا حصـل، ومـا يحصـل، وكيـف اخترقني هذا الغريب.

حبـك جنـون، تمـردك جنـون، غريـب كيـف تخترقنـي بلحظـة يسـيل لهـا لعـابي، وحـين استسـلم لـك تكـون أنـت قـد غـادرت المكـان، وانغمسـت فـي حـوار فكـري مـع رفاقـك، وربمـا تتجـرأ علـى إجـابتي علـى هـاتفي، وكأنـك لسـت الحبيـب المباغـت لتخبرنـي عـن أمـر مـا فأجـدني أنـا الأخـرى أتقمص شخصية غيري وأشاركك طلبك العام.

حبـك وحـده يسـتطيع أن يتصـف بانفصـام شخصـية، وليعلمنـي كيـف أكـون علـى جميـع المراكـز فقـط لعلـي ألـتقط كلمـة منـك لـي، وصـفاً معينـاً قـد يكـون أختـاً أو صديقة، وربما أنعم بلقب حبيبة.

كيف أكون أنا كل هؤلاء النسوة بحياتك أم أنك لا تعي المفردات، وأنه ربما الكلمة الوحيدة المتعمدة هي كلمة الحب لعلك تتلذذ بما تفعله بي. مطر أنت حين ترسمني حروفك على جدار عابر، فتأتيني كلماتك واستفهاماتك زخات أكاد لا أستوعب كيف أجيب عليها، وربما لأجدني في الأخير متهمة بالخيانة وبملامسة جدار غيرك، ما أقساك ساعتها وما أظلمك، فحتى دموعي لا تطهرني من تلك التهم.

استلمت خطواتي للطريق وكل جوانحي تعيد رسم حالة انتظرتها قرونا وانتهت قبل أن أستشعرها.

اقتادتني قدماي المتعبتان من سفر لم أعشه بعد إلى شاطئ بحر غريب مثلي، أمواجه العاتية ترتمي على الصخور كمن أصابه مس، ولعابه الأبيض يرتسم فوقها لعله يلتصق بها ويسجل مروره، وكلما فشل إلا وأعاد الكرة في تحد صارخ.

أأنت غاضب مني أيها البحر أم متعطش مثلي للحظة ننهي فيها اللعبة كاملة ونتعرى من أشيائنا العالقة من عالم نلفظه ويرفضنا ومع ذلك يظل يرقبنا ويحاسبنا بالأعين؟ ماذا لو ساعدتني لألغي هذا العالم

المركب، وأن أسلم لك جسدي لتغسله من نتوءاته، ولتعلن انتصار الطبيعة؟

أتراك تقبلتني بعد أن داعبت أطراف عابرة مسام وجهي، وأن تغتسل بي وأنا المتورطة في حكاية ملامحها لا تشبه أي حقائق سمعت عنها قبلاً؟ أجبني أيها البحر لعلي أتحرر من الهالة الزرقاء المتواطئة مع جسد غريب لامسني حتى استعرت نيراني ثم تبخر في الطبيعة.

علا صوتي وأنا أحاور الموج، فتأتي ارتطاماته موسيقى صاخبة تحيلنا لمتشاجرين أمام الملأ، من يرقبني عن بعد لا شك سيتهمني بالجنون، التفتُّ متوجسة من العيون المتطفلة، فإذا بي أمام قبور صفت بعناية وكأنها جمهور امتطى المكان. متفرجون اعتلوا مسرحاً رومانياً ليشهدوا جنون هؤلاء الأحياء العابرين في غفلة عن مسار ينتظرهم أناس يعيشون الوهم ويتعايشون معه. اندهشت لهذه الصفوف التي كانت تتبع تهوري واعترافاتي ولسان حالها يقول ما زال في الطين متسع لك بعد أن تبرد النيران في جسدك.

كيف جعلتني أجوب الشوارع مطالبة باللجوء العاطفي إليك، وأن أتخطى عيون المارة لأسجن نفسي معك في هالة قادرة على أن تفصلني عن عالمي البارد وحتى أمنحك لقب رجل بداخلي، ذلك الرمز الذي رسمته المعتقدات بداخلنا، ذلك الكائن الذي يرمز للأمان والقوة والطيبة والألفة.

الشارع المؤدي لمبنى البرلمان بأشجاره الباسقة التي اكتسبت رؤية خاصة نوع من الانضباط الذي لا يكسره إلا صراخ المعتصمين ولافتاتهم، نوع آخر من الصراع بين حياتين لا مكان فيها لذاك الركود الذي يجعل سطح الماء يعج بالطفيليات بينما الأحجار تصطف في القاع مرتبطة ببعضها البعض كمن تخاف أن تفقد اللا مكان.

كنت أعرف أن طيفي مندسٌ وسط الجموع يطالب بأمرٍ ما، مناضل من أجل تحقيق حق معين، مثلك أنا أحتاج للاعتصام مطالبة بتحقيق حاجة ملحة في الاستقرار العاطفي، في أن أكون ما خلقني اللّه لأكونه، أنثى تمارس حياتها الطبيعية على أعتاب رجل أجاد

مراقصـــتها عمـــداً ثـــم اختفـــى ليتركهـــا تلاحـــق نبضـــه وهمسه الهارب (...).

كـن مـا تريـد فأنـت كـائن بـداخلي وأنـا كـائن ضـعيف حين لا تكون. أنا الأنثى المندسة في جيبك الصغير.

لا أدري لِـمَ خطـرت ببـالي قصـيدة الجسـر لمحمـود درويـش، تلـك الحـروف التـي حملـت أناسـاً ليعبـروا جسـراً قسـرياً بـداخلهم بعـد أن عبـروا الممـر الـواقعي لتتغيـر حيـاتهم بعـدها، هـم يشـبهونني فـي ذلـك العبـور وربمـا أنـا مـن يشـبههم، فقـط هـو أن المعتـرض لطـريقهم عـدو غاشـم وأن العـابر لـي طيـف أتمنـى لـو أعيـد ملامسـته ربمـا أتـيقن أنـه كـان حقيقـة. أنـا أيضـاً عبـرت الجسـر إلـى جسـدي وأيقنـت أن اللعبـة ليسـت بـالخطورة التـي تصـورتها بقـدر مـا هـي عـالم حـالم تنتشـي لـه الأجسـاد وتتـراقص كمـن بـه مس لكن من إنس..

تركـت العاصـمة وعـدت أدراجـي أجـر خيبـة ذكـرى لـم تكتمـل ونضـجاً أنثويـاً يغـري بـالتتبع، وإحساسـاً جمـيلاً بهـذه الرغبـة الجامحـة التـي خلقهـا اللّه بـداخلي والتـي قـد يستجمع الكل بتسميتها بالأنوثة.

الطريق الطويل وتلك الفرحة الخفية بداخلي أغرقاني في الحلم، أنبتاني بعالم هلامي جميل عزلني عن العالم الواقعي الذي عادة ما يزعجني صخبه، وربما للحظة تلونه عيناي ببعض الفرح، فأجدني أداعب طفلا، وأبتسم لامرأة دونما انتظار لردة فعل الآخر اتجاه تصرفاتي، فالمهم، والأهم أنني صرت حية مرة أخرى، حتى أعود لغرفتي أتصالح مع سقفها وأعيد رسم حكايتي على جدرانها محاولة ملء الفراغات التي تركتها تنقلاتي الأخيرة ما بين اعتصامي داخل نفسي واعتصامه خارج مداري.

عادت بطلتي لمحرابها تعانق سقف غرفتها وتنتشي داخل ذاتها متلذذة بما عاشته هذه الأيام، كيف كبرت بطلتي ونضجت في أيام متعددة واستطاعت أن تتحرر مني ومن سيطرتي. كيف استطاعت أن تجد لنفسها اسماً يليق بطموحها، وأن تتلذذ بذكريات يومين من عمرها كما لم تعش معي أبداً..

حلم.. لِمَ هذا الاسم بالذات؟ أهو محاولة للندية. أتراه نوع من إقحامي في حكايتها حتى تكون حلمي وأكون حقيقتها. أترى هي فعلاً حلمي المختزن في

ذاكرتي والأمل الذي أعيشه في أعماقي. جسدها الغض أنا من رسمت تفاصيله فكيف أحسه غريباً، مغرياً، حياً، متقداً، متوراً على غير ما كان عليه، حتى رائحته صارت بطعم البحر شممته وهي تحت الرشاش تمرر أناملها عليه، وتعيد رسم مفاتنه بغنج من يكتشف جسده لأول مرة. كانت قطرات الماء تتطاير وترتسم على زجاج الحمام، متعمدة، انسياباً متواطئاً معها لعله يغريني بالتلصص عليها ولتتبعها وهي تخطو عبر الممر المؤدي لغرفتها تجر فوطة لينة طوعتها لتلتف حول خصرها كعاشق ثمل.. كنت مذهولة وأنا أراقبها، وكانت تتجاهل نظراتي وكأنما تناست وجودي، يغيظني الأمر كثيراً وأنا أدرك أنها ملكي ومن صنعي، فكيف أصير نكرة وأنا التي تلفني كل هذه الاستفهامات... أما عاد لي من دور إلا أن أتتبع خطواتها مسجلة عدد نقط الماء المتساقطة من شعرها وعدد تمايلات جسمها. أنا التي جعلتها أنثى لأكتشف من خلالها لواعج لم أستطع أن أعيشها فما بها اليوم تستأثر بهذا الإحساس وحدها، وتتمنع عن التحاور أمامي وتكتفي بأن ترتدي ملابسها وتتمدد على السرير

فـي سـفر أجهلـه وإن كنـت أدرك أنـه فـي رحـاب ذاك الطيـف الذي اختلس منها قبلة على غفلة مني وتواطؤ معها..

بطلتـــي الآن تمســـك صـــك تحررهـــا منـــي، كأنمـــا تقايضـــني بـــين حريتهـــا والأســـرار الأنثويـــة التـــي يشـــتعل قلبـي للحـديث عنهـا. كيـف أسـمح لهـا بـأن تعـيش تجربـة مـا عشـتها أبـداً وأنـا التـي علاقتـي بـالآخر كانـت تحـت تسـتر ظـلام الغـرف المغلقـة، كأنمـا لا ثقـة بـذلك العقـد الشـرعي الـذي يضـمنا، بينمـا هـي تعـيش لـذة مسـترقة مـن القـدر فـي لحظـة عـابرة تخلـد فـي فكرهـا وتحـرر جسـمها مـن عقده لينطلق كشال حريري على كتف غانية ..

مـا بـي لا أتقبـل مـا يحصـل مـع بطلتـي وكأنمـا الغيـرة الأنثويـة تـتحكم بقلمـي. أترانـي نسـيت أن أبطـال الروايـات يكبـرون وينضـجون وقـد يمرضـون ويموتـون علـى خـلاف أبطـالي القصصـية التـي لا يهمنـي مـنهم إلا مشـهد عـابر أرسـخه بـبعض أحـرف.. أيحصـل أن تغـار الروائيـة مـن بطلتهـا أم هـو مجـرد وهـم يطـالني لأنـي أفشـل أحيانـاً فـي كـبح جماحهـا.. ولأنهـا تشـبهني فـي صـمتها فـلا تبـوح إلا بما يزيدني تعطشاً لمعرفة مخططاتها المستقبلية.

أقفلت النوافذ، أسدلت الستائر وأغلقت الأبواب وتركت بطلتي تنام في سكون، أدرك عنادها كما أدرك احتياجي لها. عندما أسلمها للنوم أمنح نفسي فرصة لإعادة ترتيب الأوراق بداخلي، ما أريده وما تحقق، ففي نهاية المطاف بطلتي كانت برغم تهورها تحقق رغباتي، وإن كنت أظهر امتعاضي من الأمر للحفاظ فقط على ماء الوجه، فمجتمعاتنا عودتنا على هذا التناقض، فمحرار القبول والرفض للظواهر الاجتماعية رهين بتموقعنا وبنوع وعدد المتواجدين حولنا، وما قد نرفضه علنا قد نجيزه في الخفاء، وقد نتمناه بيننا وبين أنفسنا. هي سنة تنتهجها الدولة والأفراد. هي نفسها تخضع لهذا المعيار، ولربما لهذا حاولت اختلاق بطلة تعيش توازنها الداخلي من حيث التعبير عن مشاعرها بكل أريحية حتى ولو أدانها المجتمع، ولربما قد يدينني أنا الأخرى من خلالها، لكنها هي على الأقل لا تعيش ذاك النفاق الاجتماعي ..

لكم أغبطها ولكم أتمنى لو أستطيع الصراخ بمشاعري علنا كما صرخت وهي تحت رشاش الماء الدافئ بكل مفردات الأغاني العاطفية التي تلقفها

سمعها أثناء رحلتها الأخيرة، وكأنها تصرخ تجاه هذا المجتمع الذي تعود رسم علاقتنا بالآخر بعلامات ترقيم، وتحديد إقامة، ومنع، ومرور إجباري.

هي تشكل المواجهة التي تمنح الإحساس بالراحة والاسترخاء، وهذا ما يرسم اختلافها عني، فبينما هي هناك مستسلمة للنوم العميق، أنا هنا أقتنص من سواد الليل مدادا لصفحاتي، وبعض أنفاس ثملة من الأسى لعلي أتعلم منها..

أنا وبطلتي نتشابه كثيراً سوى أنها تعيش الوجه الذي لم أعشه. وأنا أحيا تحت حجاب من قماش ونقاب من عادات محاطة بأسوار من جمل مثل: "لا يجب، ولا يصح، وعيب، وما شابه".. هي وحدها تستطيع أن تزرع بداخلي كل هذه التناقضات حتى لا أدري إلى أي مدى سأجازف بتقبل تهورها، وربما أعتلي المنصة الحقوقية للمطالبة بحقها من ذاك الطيف الذي راودها عن نفسها ثم اختفى.

تسللت أشعة الشمس لتوقظني، ولربما لأول مرة ولتنقش خلايا وجهي من إشراقها وتمنحني بداية يوم جديد، ففي الضفة الأخرى بحر متشوق لزيارتي، فهذه المرة سأقتسم معه فنجان قهوتي الصباحي بجنون المباغتين، سأحملها دافئة وأمارس طقوس معانقة الفنجان أمامه لعله يستوعب نضجي فأنا ما عدت تلك المرأة المترددة التي كان يغريها وكانت تتمنع أمامه..

سأجالسه مجلس الكبار، وسنتحاور في أمور الراشدين عاطفياً غير الخجولين من استعراض حاجتهم للغير. سأخطط على رمله برفق محاولة رسم ملامح غريمه الذي سقى بذرة الأنوثة بداخلي. أنا الآن امرأة كاملة الأنوثة، والعنوسة الداخلية صارت أبعد، فما عاد يغريني رسم الخطوط ولباس الأقنعة والفستان الحريري الذي طالما أغراه أصبح أوسع وأسهل للاقتلاع بأول موجة دون ندم ولا حسرة، فجمالية اللحظات تقاس بإحساسنا بها لا ببكائنا على ضياعها... والفاكهة تنضج مرة واحدة وتستعد للقطف، وإلا فستظل على شجرة الانتظار حتى تذبل وتتعفن وتسقط، فلا تجد لها من كيل ولا مساوم.

البحـر وحـده القـادر علـى احتـوائي، فهـو المسـموح لـه أن يختـرق كـل قلاعـي، وأن أشـكل منـه ذلـك الآخـر الـذي عشـت زمنـا أرسـم ملامحـه بعشـق المـراهقين فـارس أحـلام جـواده موجـه، وتاجـه بريـق لامـع يعتلـي زرقتـه وينصبني بين ثناياه أنثاه الواحدة والوحيدة.

هيـا أيهـا البحـر لنكمـل رقصـة أجلناهـا مـراراً، ولـنعلن أمـام الكـون أننـا نـتقن الانسـلاخ الكلـي عمـا يعيقنـا.. مـا بـك أكثـر هـدوءاً مـن أي يـوم مضـى، أتـراك كنـت تحبنـي خائفـة جزعـة منـك حتـى ترفضـني وأنـا الآتيـة لـك بكـل طواعيـة. أيـن موجـك الهـادر الـذي تعمـد أن يرسـم تعطشـه لنيرانـي، ولأن يـداعب خصـلات شـعري.. حتـى غريمـك اليـوم لـم يعـاود الاتصـال بـي، ولـم يرسـم حـروف الشـوق التـي خلتهـا للحظـة سـتلاحقني، وغيرتـه التـي لفحتنـي مـن خـلال نظراتـه لمـا كنـا معـاً والتـي كـادت تفتـرس عامـل الحافلـة لما رمقني بابتسامة فأغضبه أني أجبته بلطف.

أرأيـت أيهـا البحـر كيـف تتحـول الثـورات إلـى سلسـلة اتهامـات. أتُـراك تشـبهه، أم أنـك فقـط تسـتبين لحظـة تسـتطيع مـن خلالهـا أن تمـارس طقوسـك الجنونيـة معـي.. مـاذا لـو قـررت الاستسـلام لـك؟ مـاذا لـو منحتـك هـذا

الجسد الغض لتغرقه فيك حتى لو قررت أن تلفظه بعدها، وتتركه جثة هامدة فأكون شهيدتك.. أتُراك تشتهيني ضحية جديدة لك؟.. أم أنك اليوم قررت أن تصونني؟.. معك أنا دائماً مترددة، وحدها جرأتي الآن قد تدمر قلاعك وتجعل لعابك يسيل ليطهر جسدي بمائك ويمنحني عمراً إضافياً.

تحررت بطلتي من كرسيها الرملي، بعد أن التقطت عوداً قذفه الموج ذات ليلة وتعمدت أن تخطط به ملامح وحروف هي وحدها تدرك معناها قبل أن تعلن رقصتها بهذيان في اتجاه الموج بخطوات ما كانت تسمح لها بأن ترتسم على الرمل إلا من خلال أصابع مرتعدة. اقتربت من الموج أكثر حتى لامسها، وبدأ يمارس لعبته لإغوائها وهو يوغلها في رمله المبتل، ويتسلل بأصابع من ماء ملامساً رجليها في تصاعد غريب ليعلن ثورته المباغتة، ويلتحف بها في لحظة خاطفة حتى لا يبقى منها إلا فستاناً حريرياً يسبح فوق الماء.

تموجه كان نوعاً من التحرش بقدرتي على التحمل وعلى تقبل ما صنعته بي هذه البطلة المتمردة، وكيف

استطاعت أن تتحرر من روايتي، وتعلن خروجها الرسمي من النص. أي فشل هذا؟ وكيف استطاعت أن تتصور ما كان يختلج بفكري في عز غضبي من تهورها يوم كنت لا أرى روايتي إلا شظايا أنثرها في البحر لعلها تدرك أنني صاحبة السلطة الملتحمة في النص الروائي فأنا الكاتبة لا هي؟ أمن السهل أن تقرر مغادرة الركح دون أسف وتتركني للتكهنات والاحتمالات وقد أضعت بوصلة النص (...)

كيف تتحرر بطلتي من نص روائي كتب خصيصاً لها؟ والأدهى أنه كان لها وحدها. ملكية خاصة. قصراً من حرف، ومساحة بحجم الكون، وحرية لم أحلم بها حتى أنا القابعة وراء جهازي لأرصد تحركاتها. كيف لها أن تترك نصي الروائي خالياً وتنغرس في توحدها مع هذا الكائن المخيف الذي طالما أرَّقها وأرقني معها. أتراه خروجاً عن النص أم تمرد من نوع آخر. أتراها فعلاً أعلنت استسلامها الأخير إليه أم هي فقط مداعبة جسد مراهق اكتشف نفسه في سفرة يتيمة خارج ذاته.

أتراه انتحار ولم تنتحر؟ وما تدخلت قط في صيرورتها. أتراها قد أصيبت بلعنة التناقض الذي

تلبسني وأنا أرسم مخططاتي لأجعلها تعيش أنوثتها كما لم تعشها امرأة غيرها.

أيكون خروجاً تعلن من خلاله انتصارها على ساردة تفتقد لأبسط آليات الكتابة حتى أسلمت مصير روايتها الأولى لبطلة كل همها أن تنام في حضن بحر تحرش بها فقررت أن تستسلم له.

لا شك أنه انتحار.. ولم تنتحر؟ ولتنتحر لو أحبت لكن داخل ركح الحروف لا خارجها، لتتحمل مسؤولية نص كتب لها وكانت كل بنوده لصالحها، بل كانت المالكة المتملكة لكل خيوطه، وما أنا إلا راصدة لتحركاتها، ناقلة لأخبارها.

أذنبي أنا لأني ملكتها حرية ولم تستخدمها بالشكل الذي يليق؟ أذنبي لأني وهبتها عمراً إضافياً خارج زمن رديء، وجعلتها تعيش الحلم وتتربع على جنباته، وألبستها فساتين من حرير؟

ما عادت تجدي التساؤلات وأنا الجالسة على حافة نص روائي سقطت كل حروفه وابتلت وما عدت أستطيع استجماعها من جديد. كيف أقدم للقارئ مجموعة أوراق بيضاء، رص الاعتذار على طرفها، وكل

ذنبي أنني جعلت لروايتي بطلة واحدة ووحيدة وحاولت قدر استطاعتي أن أبني لها عالماً هلامياً يعزلها عما يعيشه مجتمعنا من حروب وانتهاكات.

ربما كان حري بي أن أرسم عالمها خارج نافذتي فأظل المتدفئة بأفكاري وتظل هي كبائعة كبريت وأنا أجدد رسم شذرات الثلج حولها وهي ترتعد، وفي كل مرة أقوم لنافذتي أمسح من عليها أنفاسي حتى أتفقَّد نبضها ونسبة بؤسها، فكلما هزلت وانهزمت أمام الطبيعة داعبتها بقطعة حلوى دافئة من عابر طريق.

أتراها أدركت مخططاتي وأنا التي طالما فكرت في التخلص منها ومن عنادها. أتراها أعادت قراءة النص لتكتشف أنني أعلن جهرا أن قتل بطل من ورق لا يحاسب عليه القانون؟

مالي والحيرة وقد انتهى كل شيء، والرواية التي عشت زمناً أرص حروفها حررتها ريح عابثة وتركتني على جنباتها راوية لرواية لن تروى...